بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الصافات من الآية (١) إلى الآية (٥)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

بسم الله الرحمن الرحيم

{وَالصَّافَّاتِ صَفًّا * فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا * فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا * إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ * رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ} [سورة الصافات:١-٥].

يقول الإمام الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: روى النسائي عن عبد الله بن عمر -رضي الله عنهما-، قال: "كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يأمرنا بالتخفيف، ويؤمنا بالصافات"[١]، تفرد به النسائي.

هذا صححه الشيخ أحمد شاكر.

عن عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه- أنه قال: {وَالصَّافَّاتِ صَفًّا} وهي: الملائكة.

يعني هي الملائكة باعتبار أن **{وَالصَّافَّاتِ صَفًّا}** صافات جمع صافّة، صافات يكون جمعاً لصافة، فالملائكة صافة عند ربها -تبارك وتعالى-، وإنها صافة لأجنحتها كما سيأتي، فيكون من قبيل جمع الجمع كما في قوله -تبارك وتعالى-: **{وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ}** [سورة الصافات:١٦٥]، فذلك في الملائكة ولهذا فسره الجمهور بالملائكة هنا، الصافات الملائكة: هو الذي عليه السواد الأعظم، هذا الذي عليه عامة أهل العلم سلفاً وخلفاً، وتدل عليه هذه الآية **{وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ}**، ويدل عليه الحديث: ((ألا تَصُفُّون كما تَصُفُّ الملائكةُ عند ربها؟))[٢]، فالصافات هي الملائكة، وهذا الذي اختاره المحققون كابن جرير وغيره.

{فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا} وهي: الملائكة، {فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا} هي: الملائكة.

وكذا قال ابن عباس، ومسروق، وسعيد بن جُبَيْر، وعِكْرِمة، ومجاهد، والسُّدِّيّ، وقتادة، والربيع بن أنس.

وهو اختيار ابن جرير، وذلك -والله تعالى أعلم- قول عامة أهل العلم من السلف والخلف، أن ذلك جميعاً في الملائكة، ومما استدل به ابن جرير -رحمه الله- أن ذلك يرجع إلى موصوفٍ واحد **{وَالصَّافَّاتِ صَفًّا...}** فهذه أوصاف متعاطفة لموصوف واحد وهم الملائكة وأنه لا دليل على أن المراد ببعض هذه الأوصاف غير الملائكة.

قال قتادة: الملائكة صفوف في السماء.

وروى مسلم عن حذيفة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((فُضِّلنا على

---

١ - رواه النسائي، كتاب الإمامة، باب الرخصة للإمام في التطويل، برقم (٨٢٦)، وصححه الألباني في تحقيق مشكاة المصابيح، برقم (١١٣٥).

٢ - رواه مسلم، كتاب الصلاة، باب الأمر بالسكون في الصلاة والنهي عن الإشارة باليد ورفعها عند السلام وإتمام الصفوف الأُوَل والتراص فيها والأمر بالاجتماع، برقم (٤٣٠).

الناس بثلاث: جُعلت صفوفنا كصفوف الملائكة، وجعلت لنا الأرض كلها مسجدًا، وجُعل لنا تُرابها طهورًا إذا لم نجد الماء))[٣].

وقد روى مسلم أيضًا، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه عن جابر بن سَمُرَة قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ألا تَصُفُّون كما تَصُفُّ الملائكةُ عند ربهم؟))، قلنا: وكيف تَصُفُّ الملائكة عند ربهم؟ قال -صلى الله عليه وسلم-: ((يُتِمّون الصفوف المتقدمة ويَتَراصون في الصف))[٤].

هذان الحديثان والآية قبل ذلك {وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ} كلها يدل على أن المراد بذلك الملائكة، وهذه الأحاديث تدل على أنهم يصفُّون عند ربهم، يصفون للصلاة لطاعته، لعبادته، وهذه الأحاديث صريحة وواضحة في هذا المعنى، ومن أهل العلم ممن قال: إن المراد الملائكة قال: تصف أجنحتها في السماء انتظاراً لأمر الله -عز وجل- لها، ولكن هذا القول الذي قبله هو الذي تدل عليه هذه الأدلة، فالمقصود بذلك الملائكة، وبعضهم قال: المقصود بذلك الطير فذلك من دلائل قدرته -تبارك وتعالى-، والقَسم لا يكون إلا بمعظم، فالطير أخبر الله -عز وجل- أنّ صفَّها للأجنحة {صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ} [سورة الملك:١٩] أن ذلك من دلائل قدرته، صافات في جو السماء فتبقى معلقة في الهواء، {مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ} يعني ما يبقيها قائمة في الهواء هكذا صافة لأجنحتها إلا الله كما أنه يمسك السماء من غير عمد فلا تسقط على الأرض، فهكذا هذه الطيور من الذي يبقيها هكذا معلقة صافة لأجنحتها إلا الله -تبارك وتعالى- وإلا لسقطت، لكن هذا ليس المراد بالآية -والله تعالى أعلم-، وهكذا من قال: المقصود به المصلون من بني آدم أو الذين يصطفون في صف الجهاد، {وَالصَّافَّاتِ صَفًّا} لكن الآية وهذه الأحاديث تدل على أن المراد بذلك الملائكة تصف عند ربها، فأقسم الله بها.

وقال السدي وغيره: معنى قوله {فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا} أنها تزجر السحاب.

تزجر السحاب يعني هذا في الملائكة أيضاً، فهي تزجر السحاب أو أنها تزجر عن المعاصي، والشيطان كذلك باعتبار أنها تزجر عن المعاصي، والنبي -صلى الله عليه وسلم- أخبرنا أن الرعد صوت الملك الموكل بالسحاب، وأن البرق سوطه حينما يسوقها ويزجرها، فالزاجرات تزجر يعني الملائكة تزجر السحاب، وبعضهم كقتادة يقول: المقصود بالزاجرات: الزواجر من القرآن، وهذا لا دليل عليه -والله تعالى أعلم-، وبعضهم يقول: العلماء؛ لأنهم يزجرون الناس -بالمواعظ والتذكير وما إلى ذلك- عما لا يليق، وأصل الزجر هو الدفع بقوة، وزجرته عن كذا أزجر فلاناً.

{فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا} قال السدي: الملائكة يجيئون بالكتاب، والقرآن من عند الله إلى الناس.

---

٣ - رواه مسلم، في أوائل كتاب المساجد ومواضع الصلاة، برقم (٥٢٢).

٤ - رواه مسلم، كتاب الصلاة، باب الأمر بالسكون في الصلاة والنهي عن الإشارة باليد ورفعها عند السلام وإتمام الصفوف الأُول والتراص فيها والأمر بالاجتماع، برقم (٤٣٠)، وأبو داود، كتاب الصلاة، باب تسوية الصفوف، برقم (٦٦١)، والنسائي، كتاب الإمامة، حث الإمامِ على رص الصفوف والمقاربة بينها، برقم (٨١٦)، وابن ماجه، كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب إقامة الصفوف، برقم (٩٩٢).

{فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا} كقوله -تبارك وتعالى-: {فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا} [سورة المرسلات:٥] ولهذا خصصه بعضهم بجبريل -عليه الصلاة والسلام- باعتبار أنه المُوكل بالوحي، فالوحي إنما يأتي به جبريل -عليه الصلاة والسلام- فيكون قد عبر بالجمع مراداً به المفرد، وهو جبريل -عليه الصلاة والسلام-، والله -تبارك وتعالى- جعل من الملائكة واختار منهم رسلاً كما اختار رسلاً من الناس {اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ} [سورة الحج:٧٥]، فهؤلاء الرسل يكونون رسلاً بين الله وخلقه، لكن هؤلاء يأتون بالوحي إلى الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-، وهل يأتي بغير القرآن أحدٌ غير جبريل -صلى الله عليه وسلم-؟ ظواهر النصوص من الكتاب والسنة {نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ} [سورة الشعراء:١٩٣-١٩٤]، وكذلك أيضاً {عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى * ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى} [سورة النجم:٥-٦] إلى آخره، هذا كله في جبريل -صلى الله عليه وسلم-، {قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ} [سورة النحل:١٠٢] فجبريل -صلى الله عليه وسلم- هو الذي ينزل على النبي -عليه الصلاة والسلام- خلاف من قال: إنه يَنزل بعضُ القرآن بطريق أو من غير طريق جبريل -عليه الصلاة والسلام-، ويحتجون بالحديث حديث ابن عباس -رضي الله عنهما- أنه لما كان جبريل عند النبي -صلى الله عليه وسلم- فسمع صوتاً فرفع رأسه، وقال: ((هذا باب من السماء فتح اليوم لم يفتح قط إلا اليوم فنزل منه ملك فقال: هذا ملك نزل إلى الأرض لم ينزل قط إلا اليوم فسلم، وقال: أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة، لن تقرأ بحرف منهما إلا أعطيته))[٥]، قالوا: هذا الملك جاء بها فبعضهم يقول: هذا يدل على أن غير جبريل قد يُنزل شيئاً من القرآن، وقوله: {قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ} هذه الآيات باعتبار الغالب، وأما القليل والنادر فلا أثر له في ذلك ولا حكم، وبعضهم يقول: إن هذا ألقاه إلى جبريل، وإنما جاء بالبشارة فقط، ويمكن أن يقال -والله أعلم-: إنه لم ينزل بها حينئذ، وإنما جاء بالبشارة، فسورة الفاتحة كانت نازلة في مكة وهذه الواقعة كانت بالمدينة، وإنما جاء بالبشارة فقط والبشارة قد تكون على أمر قد مضى، وقد تكون على أمر قد يقع، وقد تكون على أمر قد يحصل بالمستقبل، فهنا خصه بعضهم {فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا} بجبريل -عليه الصلاة والسلام-، لكن هذا إذا خصصناه بالقرآن فإذا قلنا الوحي: فقد يأتي به غير جبريل إلى النبي -صلى الله عليه وسلم-، قد يأتي به ملك من الملائكة، فمن نظر إلى أنه قرآن قال: هذا جبريل عبر بالجمع وأراد به الواحد، وبعضهم عمم المعنى كقتادة قال: كل من تلا القرآن فيدخل فيه الملائكة كجبريل -عليه السلام-، والنبي -صلى الله عليه وسلم- وهكذا كل من يتلو من أهل الإيمان، فأقسم الله -عز وجل- بذلك {فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا}، وبعضهم يقول: إن المراد بذلك الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- يتلون على أقوامهم، وهذا الذي قاله الموارديّ، والمشهور أن المراد بذلك الملائكة، وهذا الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله-، وهو الذي عليه عامة أهل العلم، وأن هذه الآيات كما سبق كلها بالملائكة، هذه الأوصاف المتتابعة في موصوف واحد متعاطفة.

وابن القيم -رحمه الله- جعل هذا محتملاً، يعني الآية {فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا} يحتمل أن يكون المراد جبريل، وأن

---

٥ - رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل الفاتحة وخواتيم سورة البقرة والحث على قراءة الآيتين من آخر البقرة، برقم (٨٠٦).

يكون الملائكة، وأن يكون من يتلو القرآن كما قال قتادة: إن هذا كله احتمال، أقسم الله بمن يتلون كتابه، ولكن جَعلَ أولى ما يصدق عليه ذلك وما يقال فيه هم الملائكة، هذا ابن القيم يقول: لا يبعد أن يرادوا به جميعاً، ولكن أولى ما يدخل فيه ذلك ويصدق عليه هذا الوصف الملائكة {فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا}.

وقوله: {إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ} هذا هو المقسم عليه أنه تعالى لا إله إلا هو {رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا} أي: من المخلوقات، {وَرَبُّ الْمَشَارِقِ} أي: هو المالك المتصرف في الخلق بتسخيره بما فيه من كواكب ثوابت، وسيارات تبدو من المشرق، وتغرب من المغرب، واكتفى بذكر المشارق عن المغارب لدلالتها عليه، وقد صرح بذلك في قوله: {فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ} [سورة المعارج:٤٠]، وقال في الآية الأخرى: {رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ} [سورة الرحمن:١٧] يعني في الشتاء والصيف، للشمس والقمر.

الآن عندنا شيئان: الأول: هو أنه ذكر المشارق ولم يذكر المغارب، الجواب الذي ذكره ابن كثير عن هذا أنه من باب الاكتفاء اكتفى بأحد القبيلين ليدل على الآخر، كقوله: {سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ} [سورة النحل:٨١] يعني والبرد، وعليه حمل قولَه -تبارك وتعالى- بعضُ أهل العلم: {فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى} [سورة الأعلى:٩] أي وإن لم تنفع، فلا يسقط الأمر بالمعروف ولا النهي عن المنكر والتذكير إذا كان يتوقع ألا يقبل هذا المذكَّر والمنصوح والمأمور والمنهي، وليس هذا محل اتفاق، لكن أن يذكر أحد القبيلين ليدل على الآخر، أحد المتقابلين ليدل على الآخر هذا أسلوب عربي معروف، على هذا قول ابن كثير أنه ذكر المشارق أي والمغارب، القضية الثانية وهي هنا أنه ذكرها بصيغة الجمع {وَرَبُّ الْمَشَارِقِ} المشارق، كذلك في {فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ}، وفي الآية الأخرى {رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ} ذكر المشرقين، وفي الثالثة {رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ} [سورة المزمل:٩] بصيغة الإفراد، فصار عندنا الجمع والتثنية والإفراد، وقد مضى الكلام على هذا في بعض المناسبات، وحاصل ما ذكر هناك أن الجمع {فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ} من أهل العلم من يقول: باعتبار -كما هو ظاهر كلام ابن كثير -رحمه الله- هنا- مشارق الكواكب ومغاربها فالشمس والقمر والنجوم تشرق وتغرب، فبهذا الاعتبار جَمعَ، وأن قوله: {رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ} يعني الشمس والقمر، والمغربين، {رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ} يعني مشرق الشمس ومغرب الشمس، فهذا توجيه للجمع والتثنية والإفراد، وبعض أهل العلم يقول: كل ذلك في الشمس، فـ {وَرَبُّ الْمَشَارِقِ} يعني المشارق الشمس يقولون: هي ثلاثمائة وستون مشرقاً، وكذا المغارب مع أنها كل يوم لها طلوع وغروب، شروق وغروب كل يوم، يعني حينما تخرج في الشتاء في حال شروقها فإنها تتجه من أقصى نقطة في الشمال الشرقي، وفي الغروب أقصى نقطة من جهة الجنوب الغربي بهذا الشكل، وكل يوم تنتقل درجة، فتجد الفيء يتحول، حتى تصير في الصيف أقصى نقطة تشرق من ناحية الجنوب الشرقي، وتغرب في أقصى نقطة من جهة الشمال الغربي يعني غرباً إلى ناحية الشمال في أقصى نقطة لها، فهذه مشارق كل يوم تنتقل، ومغارب كل يوم تنتقل، فإذا ذكر مفرداً {رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ} فهو باعتبار شروق الشمس وغروبها مشرق واحد، ومغرب واحد، {رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ}، يحتمل أن يكون الشمس والقمر، يحتمل أن يكون أقصى نقطة لها كما وصفت من ناحية الجنوب الشرقي والشمال الشرقي، وهكذا الجنوب الغربي والشمال الغربي أقصى نقطة من هنا وهنا، صار

{رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ}، {رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ} باعتبار أقصى نقطتين فقط وترك ما بينهما، {رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ} باعتبار الشمس والقمر، هذا توجيه لهذا المعنى -والله تعالى أعلم-، وكون أنه اقتصر هنا على المشرق ليدل على المغرب ليس هذا بقاطع، فمن أهل العلم من يقول: ذكْرُ المشارق مقصود وحتى من يقول: إنه مقصود بعضهم لا يمنع من أن يكون المغارب لكن هذا ذكر المشارق وحدها بأي اعتبار؟ ابن القيم -رحمه الله- يقول: إنه قصد ذكر المشارق بالذات إما أنه أرادها دون المغارب هنا في هذا المقام فلا يكون من باب الاكتفاء، أو يكون من باب الاكتفاء وأنه ذكرها؛ لأنها الأشرف كما قال: {فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى} فذكر أشرف الاحتمالين وترك الآخر، فبأي اعتبار هنا ذكرَ المشارق دون المغارب؟ يعني المشارق هي مطلع الأنوار، فهي أشرف من المغارب أو باعتبار أنها الأنسب في المقام أنه هنا جعل الكواكب زينة للسماء الدنيا، وذلك المناسب معه ذكر المشارق مشارق هذه الأنوار لا مغاربها فإنها تكون في حال من الأفُول، وإنما سلطانها حينما يكون شروقها فيراها الناس في السماء، وتكون زينة لها لا في أفولها، وكل ذلك من دلائل عظمته -تبارك وتعالى- فكما أنه أقسم بالليل في حالة إقباله وحالة إدباره {وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى} [سورة الليل:١]، {وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى} [سورة الضحى:٢]، {وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ} [سورة المدثر:٣٣] وعليهما يحمل قوله: {وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ} [سورة التكوير:١٧] فهو مشترك يحمل معنيين متضادين، فيكون أقسم به في حالة إقباله وفي حالة إدباره فذلك مظاهر عظمته -تبارك وتعالى- وهنا هذه مظاهر القدرة والعظمة، والله أعلم.

تم بحمد الله وفضله.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الصافات من الآية (٦) إلى الآية (٤٩)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد.

اللهم اغفر لنا ولشيخنا وللحاضرين يا كريم، قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في قوله: {إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ * وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ * لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلإِ الأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ * دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ * إِلا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ} [سورة الصافات:٦-١٠].

يخبر تعالى أنه زين السماء الدنيا للناظرين إليها من أهل الأرض {بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ}، قرئ بالإضافة وبالبدل، وكلاهما بمعنى واحد، فالكواكب السيارة والثوابت في السماء تضيء لأهل الأرض، كما قال تعالى {وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ} [سورة الملك:٥]، وقال: {وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ * وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ * إِلا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ} [سورة الحجر:١٦-١٨].

وقوله هاهنا: {وَحِفْظًا} تقديره: وحفظناها حفظًا، {مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ} يعني: المتمرد العاتي إذا أراد أن يسترق السمع، أتاه شهاب ثاقب فأحرقه، ولهذا قال: {لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلإِ الأَعْلَى} أي: لئلا يصلوا إلى الملأ الأعلى، وهي السماوات ومن فيها من الملائكة، إذا تكلموا بما يوحيه الله مما يقوله من شرعه وقدره، كما تقدم بيان ذلك في الأحاديث التي أوردناها عند قوله تعالى: {حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ} [سورة سبأ:٢٣]، ولهذا قال: {وَيُقْذَفُونَ} أي: يرمون {مِنْ كُلِّ جَانِبٍ} أي: من كل جهة يقصدون السماء منها، {دُحُورًا} أي: رجما يدحرون به ويزجرون، ويمنعون من الوصول إلى ذلك، {وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ} أي: في الدار الآخرة لهم عذاب دائم موجع مستمر، كما قال: {وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ} [سورة الملك:٥].

وقوله: {إِلا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ} أي: إلا من اختطف من الشياطين الخطفة، وهي الكلمة يسمعها من السماء فيلقيها إلى الذي تحته، ويلقيها الآخر إلى الذي تحته، فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها وربما ألقاها بقدر الله قبل أن يأتيه الشهاب فيحرقه، فيذهب بها الآخر إلى الكاهن، كما تقدم في الحديث، ولهذا قال: {إِلا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ} أي: مستنير.

روى ابن جرير عن ابن عباس قال: كان للشياطين مقاعد في السماء فكانوا يستمعون الوحي، قال: وكانت النجوم لا تجري، وكانت الشياطين لا تُرْمى قال: فإذا سمعوا الوحي نزلوا إلى الأرض، فزادوا في الكلمة تسعًا، قال: فلما بُعث رسول الله -صلى الله عليه وسلم- جَعل الشيطان إذا قصد مقعده جاء شهاب فلم يُخْطئه حتى يُحرقَه، قال: فشكوا ذلك إلى إبليس، فقال: ما هو إلا من أمْر حدث، قال: فَبَثّ جنوده، فإذا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قائم يصلي بين جبلي نخلة -قال وكيع: يعني بطن نخلة- قال: فرجعوا

إلى إبليس فأخبروه، فقال: هذا الذي حدث.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ} الحافظ ابن كثير -رحمه الله- يقول هنا: **قرئ بالإضافة وبالبدل وكلاهما بمعني واحد**، بالبدل على هذه القراءة {بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ} فتكون الكواكب بدل الزينة، وهذه الزينة التي يزين الله بها السماء الدنيا هي الكواكب، {بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ} كأنه قال هنا: {إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا} بالكواكب، وعلى الإضافة {بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ} من غير تنوين زينة، بزينة الكوكب، زينها بزينة الكواكب، هذا هو المراد من كلام الحافظ -رحمه الله-، وقوله -تبارك وتعالى-: {وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ * دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ} قال: {دُحُورًا} أي: **رجماً يدحرون به ويزجرون**، وأصل الدحور بمعنى الطرد، دحره، دحر العدو بمعنى دفعهم وطردهم، {دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ} قال: **أي في الدار الآخرة لهم عذاب دائم موجع مستمر** بالدار الآخرة، وأصل الواصب هو الذي فسره به عامة أهل العلم الجمهور: الدائم، {وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ} أي: عذابٌ دائمٌ مستمر هنا قال: **في الدار الآخرة**، وهذا ليس محل اتفاق، فمن السلف من قال: إن هذا العذاب الواصب إلى النفخة الأولى، يعني أن ذلك في الدنيا، هذا قاله مقاتل، والعذاب الواصب هو الدائم، وجمع من السلف فسروه بالموجع الذي يصل وجعه إلى القلب، قالوا: إنه مأخوذ من الوصب الذي هو المرض، هكذا قالوا، و بعضهم يعبر عن ذلك بالشديد، وهذا مثل قول من قال: إنه موجع، ومن قال: إنه يصل وصبه إلى القلب، وكذلك أيضاً هو من شدة إيلامه يصل إلى القلوب، وقوله -تبارك وتعالى-: {إِلا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ} قال: **إلا من اختطف من الشياطين الخطفة**، والخطف أصله الاختلاس، المسارقة وأخذ الشيء بسرعة، الخطف هو المصدر، ويقال: خطفة للواحدة من الخطف، إلا من خطف الخطفة هذا الاستثناء في هذه الآية {إِلا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ} يحتمل أن يرجع إلى قوله: {لَا يَسَّمَّعُونَ}، بمعنى أنه يحصل الاستماع لمن خطف الخطفة، {لَا يَسَّمَّعُونَ} إلا أن يكون ذلك بمعنى بعض ما يحصل له ذلك، ويحتمل أن يرجع إلى قوله: {وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ}، وأما قوله -تبارك وتعالى-: {لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلإِ الأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ * دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ * إِلا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ} فبمعنى أنه لا يصيبه الشهاب، فالأول يدل على أنه لا يحصل لهم الاستماع مطلقاً {لَا يَسَّمَّعُونَ} لا يتسمعون؛ لأن أصل قوله: {لَا يَسَّمَّعُونَ} أي: لا يتسمعون كما في القراءة الأخرى المتواترة، نفي للسماع من أصله، ومن ثَمّ فهم لا يحصل لهم سماع ولا استماع.

الثانية: لا يتسمعون حصل لها الإدغام {لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ}، وبعضهم يقول: إن هذا الاستثناء راجع إلى غير الوحي لقوله تعالى: {إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ} [سورة الشعراء:٢١٢]، وهذا فيه نظر -والله تعالى أعلم-، فهم معزلون عن السمع بهذه الشهب، وكما في هذه الرواية التي ذكرها الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: **كان للشياطين مقاعد في السماء فكانوا يتسمعون الوحي، وكانت النجوم تجري وكانت الشياطين لا تُرمى، فإذا سمعوا الوحي نزلوا إلى الأرض** ... إلى آخره ثم مُنعوا من هذا فعُزلوا عن السمع فكانوا كما قال الله -عز وجل-: {إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ}، وكما قال الله -عز وجل- عن الجن: {وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاء فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا * وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا} [سورة الجن:٨-٩] يعني مرصداً، وقد يقول قائل: إنه وُجد ما

يدل على أن الرجم لهم بهذه الشهب كان موجوداً في الجاهلية، ويدل عليه حديث: ((ما كنتم تقولون لمثل هذا في الجاهلية إذا رأيتموه؟))، قالوا: "يموت عظيم أو يولد عظيم"[1]، فالسؤال الذي يرد أنهم إذا كانوا بالجاهلية يُرجمون فما الجديد بعد بعث النبي -صلى الله عليه وسلم-؟ قد أجاب بعض السلف بأن الجديد أن ذلك صار مضاعفاً فوجدوا السماء ملئت حرساً شديداً وشهباً أكثر وأعظم مما كان، يعني كانوا يرجمون قبل بعث النبي -صلى الله عليه وسلم- إلا أن ذلك بعد بعثه -عليه الصلاة والسلام- صار أشد، وتضاعف، وبعض أهل العلم يقول: الاستثناء في قوله: {إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ} منقطع لا يرجع إلى شيء مما سبق ليس بمتصل، بمعنى لكن {إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ}، والحديث صور استراق هؤلاء الشياطين للسمع وأنهم يرقى بعضهم على بعض وكل واحد منهم يلقيها للذي يليه حتى يصل إلى الكاهن، فيكذب معها مائة كذبة، وقوله: {إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ} الثاقب هنا قال: أي: **المستنير**، أصل الثاقب أو الثقوب الثاقب: هو المضيء، ثقوب الإضاءة، {شِهَابٌ ثَاقِبٌ} أي: مضيء، يعني {إِلاَّ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ} [سورة الحجر:١٨] هنا بمعنى الثاقب وهو ما نراه ونشاهده يكون معه في الإضاءة، كأنها جذوة من نار تلقى على هذا الشيطان فهذه الشهب التي نراها ترمى بها الشياطين، وصدر سورة الصافات هذا له أثر عجيب في القراءة على الشياطين يعني المصروع الذي يتخبطه الشيطان، ومن به شيطان "مس" ونحو ذلك إذا قرئ عليه صدر هذه السورة فإنه لا يتمالك، فإذا قرأتَ عليه الآية: {وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ * دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ} فإن ذلك يكون في غاية الإيلام والإيجاع له، لا يتمالك يصيح بأعلى صوته، ويطلب الخلاص والخروج من هذا المصروع، فإذا كررت ذلك عليه فكأنما تنخسه برمح، هو من أقوى ما يؤثر في هؤلاء الذين يصرعون الناس ويؤذونهم من هؤلاء الشياطين.

{فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لازِبٍ * بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ * وَإِذَا ذُكِّرُوا لا يَذْكُرُونَ * وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ * وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلا سِحْرٌ مُبِينٌ * أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * أَوَآبَاؤُنَا الأوَّلُونَ * قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ * فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ} [سورة الصافات:١١-١٩].

يقول تعالى: فَسَلْ هؤلاء المنكرين للبعث: أيّما أشد خلقًا هم أم السماوات والأرض، وما بينهما من الملائكة والشياطين والمخلوقات العظيمة؟ -وقرأ ابن مسعود: "أم مَن عَددنا"- فإنهم يُقرّون أن هذه المخلوقات أشد خلقًا منهم.

كثير من السلف يفسرون هذا الموضع، {أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا} بما سبق، يعني الأشياء التي ذكرها الله -تبارك وتعالى- قبله، هذه الأشياء التي عدها من ذكر السماوات والأرض والشياطين.

---

١ - رواه الترمذي، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ومن سورة سبأ، برقم (٣٢٢٤)، وأحمد في المسند، برقم (١٨٨٢)، وقال محققوه: "إسناده صحيح على شرط الشيخين"، وابن حبان في صحيحه برقم (٦١٢٩)، وصححه الألباني في تحقيق مشكاة المصابيح برقم (٤٦٠١).

وإذا كان الأمر كذلك فلِمَ ينكرون البعث وهم يشاهدون ما هو أعظم مما أنكروا، كما قال تعالى: {لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ}؟ [سورة غافر:٥٧] **ثم بين أنهم خُلقوا من شيء ضعيف، فقال: {إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لازِبٍ}، قال مجاهد، وسعيد بن جبير، والضحاك: هو الجيّد الذي يلتزق بعضه ببعض، وقال ابن عباس، وعكرمة: هو اللزج، وقال قتادة: هو الذي يلزق باليد.**

هذا كله هل يرجع إلى معنى واحد؟، هذا الذي يقال له: اختلاف تنوع، وليس اختلاف تضاد، وعامة عبارات السلف مما ذكر والذي لم يذكر يرجع إلى هذا المعنى، يعني أنه يلزق باليد، وكذلك أيضاً اللازب كل ذلك بمعنى واحد، والله -تبارك وتعالى- أخبر أنه خلق الإنسان من تراب، خلق آدم -صلى الله عليه وسلم- من تراب، وأخبر أنه خلقه من طين، أنه خلقه {مِنْ طِينٍ لازِبٍ}، {مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ} [سورة الحجر:٢٦]، {مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ} [سورة الرحمن:١٤] فكل هذا أطوار خلق الإنسان، والله خلقه من تراب، وهذا التراب بُل بالماء فصار طيناً، فتُرك حتى صار حمأً وصار بهذه المثابة يلزق باليد، طين متلاصق يلصق ويعلق باليد ثم تُرك حتى جف فصار كالفخار، فإذا عبر عن حالة من هذه المراحل في صفة الخلق فإن ذلك يصدق عليه في طورٍ من أطواره، طوره الأول التراب، ثم صار طيناً، ثم صار بعد ذلك حمأً، ثم جف وصار كالفخار.

وقوله: {بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ} أي: بل عجبت يا محمد من تكذيب هؤلاء المنكرين للبعث، وأنت موقن مصدق بما أخبر الله به من الأمر العجيب، وهو إعادة الأجسام بعد فنائها، وهم بخلاف أمرك، من شدة تكذيبهم يسخرون مما تقول لهم من ذلك.

قال قتادة: عجب محمد -صلى الله عليه وسلم-، وسَخِر ضُلّال بني آدم.

قوله: {بَلْ عَجِبْتَ} به قراءتان متواترتان الأولى بالضم وهي قراءة حمزة والكسائي، {بَلْ عَجِبْتُ وَيَسْخَرُونَ} ويكون ذلك يرجع إلى الله -تبارك وتعالى-، فيُستدل بهذه الآية -على هذه القراءة- على إثبات صفة التعجب لله -عز وجل- على ما يليق بجلاله وعظمته، وهذه الصفة ثابتة لله تعالى بالسنة كما هو معلوم ((عجب ربنا من رجل غزا في سبيل الله فانهزم))[٢]، وحديث: ((عجب ربنا من قوم يقادون إلى الجنة في السلاسل))[٣]، وغير ذلك مما يدل على هذه الصفة، فيدل عليها من القرآن هذه القراءة وهي مروية عن علي وابن مسعود وابن عباس -رضي الله تعالى عنهم أجمعين-، واختار هذه القراءة أبو عبيد والفراء، وقراءة الجمهور على ما نقرأ به {بَلْ عَجِبْتَ} بالفتح يرجع إلى النبي -صلى الله عليه وسلم-، والقاعدة أن القراءتين إن كان لكل واحدة معنى يخصها فهما بمنزلة الآيتين، وصارت القراءة التي بالضم تدل على صفة الله -عز وجل-، {بَلْ عَجِبْتُ} يكون التعجب صادراً من الله، وعلى القراءة الأخرى يكون التعجب صادراً من النبي -صلى الله

---

٢ - رواه أبو داود، كتاب الجهاد، باب في الرجل يشري نفسه، برقم (٢٥٣٦)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٣٩٨١).

٣ - رواه الإمام أحمد في المسند، برقم (٨٠١٣)، وقال محققوه: "إسناده صحيح على شرط مسلم، رجاله ثقات رجال الشيخين غير حماد -وهو ابن سلمة- فمن رجال مسلم. محمد بن زياد: هو القرشي الجمحي مولاهم"، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٣٩٨٢).

عليه وسلم-، وعليه فالمعنى إن كان ذلك من قِبل النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: {بَلْ عَجِبْتَ} يا محمد من تكذيب هؤلاء المنكرين، وبعضهم يقول: عجبتَ من قدرة الله -عز وجل- ويسخرون منك ومن تعجبك، يعني باعتبار ما ذكر قبله من صفة الخلق وقدرة الله -تبارك وتعالى- على خلق هذه المخلوقات العظيمة، وبعضهم يقول: يسخرون من إثباتك للبعث {بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ} يقول: **قال قتادة: عجب محمد -صلى الله عليه وسلم- وسخر ضُلّال بني آدم**، وما حدد شيئاً.

{وَإِذَا رَأَوْا آيَةً} **أي: دلالة واضحة على ذلك {يَسْتَسْخِرُونَ} قال مجاهد وقتادة: يستهزئون.**

{يَسْتَسْخِرُونَ} يعني يبالغون في السخرية يسخر ويستسخر زيادة المبنى لزيادة المعنى، فكُبكبوا أبلغ من فكُبوا، وهكذا يستسخرون أي يبالغون بالسخرية.

{وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلا سِحْرٌ مُبِينٌ} **أي: إن هذا الذي جئت به إلا سحر مبين،** {أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * أَوَآبَاؤُنَا الأوَّلُونَ} **يستبعدون ذلك ويكذبون به،** {قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ} **أي: قل لهم يا محمد: نعم تبعثون يوم القيامة بعدما تصيرون ترابا وعظاما،** {وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ} **أي: حقيرون تحت القدرة العظيمة، كما قال تعالى:** {وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ} [سورة النمل:٨٧]، **وقال:** {إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ} [سورة غافر:٦٠].

ثم قال جلّت عظمته: {فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ} **أي: إنما هو أمر واحد من الله -عز وجل-، يدعوهم دعوة واحدة أن يخرجوا من الأرض، فإذا هم قيام بين يديه، ينظرون إلى أهوال يوم القيامة، والله تعالى أعلم.**

{وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ * هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ * احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ * مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ * وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ * مَا لَكُمْ لا تَنَاصَرُونَ * بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ} [سورة الصافات:٢٠-٢٦].

يخبر تعالى عن قِيل الكفار يوم القيامة أنهم يرجعون على أنفسهم بالملامة، ويعترفون بأنهم كانوا ظالمين لأنفسهم في الدار الدنيا، فإذا عاينوا أهوال القيامة نَدمُوا كلَّ الندم حيث لا ينفعهم الندم، {وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ}، **فتقول لهم الملائكة والمؤمنون:** {هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ}، **وهذا يقال لهم على وجه التقريع والتوبيخ.**

قوله: وقالوا: {وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا} الويل على المشهور الذي عليه عامة أهل العلم أنها كلمة تقال حال مواجهة الهلكة، فإذا كان الإنسان في حال كهذه يعني في وقت الهلكة يقول: يا ويلي، {وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا} لما رأوا العذاب {وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ} خلافاً من قال: إن أصلها من كلمتين ياوي لنا، وإن الويل هو الحزن يعني يا حزننا، {هَذَا يَوْمُ الدِّينِ} ولكن جاءت موصولة بالكتابة ولم تأتِ مفصولة مما يدل على أنها كلمة واحدة، هذا وإن قال به بعض أهل المعاني كالفراء إلا أن المشهور خلاف ذلك، ورد عليه النحاس بما سبق {وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ}، يقول: **فتقول لهم الملائكة والمؤمنون:** {هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ} لا شك أن هذا من متكلم آخر، ولا يقال بحال من الأحوال: إن هذا من الموصول لفظاً المفصول معنى؛ لأن الخطاب وجه به إليهم {هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ}، لكن الحافظ ابن كثير -رحمه

الله- هنا جمع بين القولين؛ لأنه لا دليل على أن هذا القائل هم الملائكة أو أنهم المؤمنون، فبعضهم يقول هذا، والحافظ ابن كثير -رحمه الله- يقول: **فتقول لهم الملائكة والمؤمنون** يعني الذين يقرون بأن {هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ} من كان يؤمن بذلك يقول لهم: {هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ} بمعنى أن الاقتصار على القول بواحد منهما فيه تحكم من غير دليل.

ويأمر الله الملائكة أن تُميزَ الكفار من المؤمنين في الموقف في محشرهم ومنشرهم، ولهذا قال تعالى: {احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ} قال النعمان بن بشير -رضي الله عنه-، يعني بأزواجهم أشباههم وأمثالهم، وكذا قال ابن عباس، وسعيد بن جُبَيْر، وعِكْرِمة ومجاهد، والسُّدِّي، وأبو صالح، وأبو العالية، وزيد بن أسلم وغيرهم.

وهذا الذي عليه عامة أهل العلم، وهو قول الجمهور {احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ} يعني وأشباههم ونظراءهم، وهو الذي اختاره الحافظ ابن القيم، والشيخ الأمين محمد الشنقيطي -رحمه الله-، وهو الذي دل عليه القرآن كقوله -تبارك وتعالى-: {لاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ} [سورة الحجر:٨٨] أي أصنافاً منهم، وليس المقصود الزوجات، وقد يأتي بهذا المعنى غالباً، وتفسير القرآن بالغالب هو المتعين إلا بدليل.

وقال شريك، عن سماك، عن النعمان قال: سمعت عمر يقول: {احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ} قال: أشباههم قال: يجيء أصحاب الزّنا مع أصحاب الزّنا، وأصحاب الربا مع أصحاب الربا، وأصحاب الخمر مع أصحاب الخمر.

يعني هذا الذي ذكره عن النعمان -رضي الله عنه- قال: سمعت عمر -رضي الله عنه- هذا من قبيل تفسير الصحابي الذي ينقله عن صحابي آخر، صحابي عن صحابي آخر وهو أحد الأنواع الستة التي يفسر بها الصحابة -رضي الله تعالى عنهم-، القرآن وغالبُ ما تجدون في الكتب التي تتحدث عن هذا في كتب أصول التفسير أنهم لا يذكرون هذا النوع، وهو موجود وله أمثلة هذا واحد منها، هذا النعمان -رضي الله عنه- ينقل هذا التفسير عن عمر بن الخطاب -رضي الله تعالى عن الجميع- قال: **يجيء أصحاب الزنا مع أصحاب الزنا** ... إلى آخره، ويحشرون مع نظرائهم فاليهود مع اليهود، والنصارى مع النصارى، ومن يعبد صنماً مع عابديه وهكذا قال: **عن ابن عباس {أَزْوَاجَهُمْ} قرناءهم**، ومقصوده بذلك: الأزواج: القرناء، ويحتمل أنه قصد بذلك: القرناء من الشياطين، وقد جاء مصرحاً بذلك حينما نجمع الروايات عن السلف -رضي الله تعالى عنهم- عن جماعة من السلف كالضحاك قال: قرناءهم من الشياطين يحشر كل كافر مع شيطانه، وبهذا أيضاً قال مقاتل، وهذا احتمال، ولكن عامة أهل العلم على الأول، وهناك من قال -كما جاء عن الحسن ومجاهد- {احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ}: أي: الزوجات، ولكنهم قيدوه بالمشركين الذين تكون زوجاتهم مشركات، وإلا ففرعون كما هو معلوم كانت زوجته مؤمنة، {احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ} ولا يقول قائل: إنه ذكر ذلك مذكراً {وَأَزْوَاجَهُمْ}، فإن هذه اللغة الأشهر والأفصح يقول: الرجل هذه زوجي، وهذه اللغة هي التي وردت في القرآن، أما زوجة فبعضهم قال: إنه لحن، والصحيح أنه ليس بلحن لكنها ليست الأفصح، ولم تستعمل بالقرآن، ويدل على أنها ليست بلحن قول الفرزدق:

وإن الذي يسعى ليُفسد زوجتي *** كساعٍ إلى أُسد الشرى يستبيلها

"زوجتي"، ومعلوم أن الفرزدق بعصر الاحتجاج، يحتج بشعره والشاهد:

وإن الذي يسعى ليفسد زوجتي ***

فهي لغة صحيحة، ولكن الأفصح زوجي، {وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ} [سورة الأنبياء:٩٠]، هذا القول لهؤلاء من السلف عن الحسن ومجاهد أن المقصود الزوجات إلا أنه بعيد، وبعضهم يقول غير هذا، بعضهم قال: إن المقصود وأزواجهم: أنه يزوج بين الأرواح والأبدان، بين النفوس والأبدان، ترجع النفوس والأرواح بلا أبدان، قالوا: هذا هو المراد بقوله -تبارك وتعالى-: {وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ} [سورة التكوير:٧]، والأقرب أن قوله: {وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ} أنه كهذا الموضع هنا {احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ}، {وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ} بمعنى أنه يلحق بنظرائه يوم القيامة الأشرار مع الأشرار، والأخيار مع الأخيار، وبعضهم يقول: إن ذلك بمعنى أنه يحصل جمعٌ بين العمل وعامله، وهذا أيضاً بعيد، وبعضهم يقول: بين الشياطين ومن أضلوهم، ولكن الأقرب -والله أعلم- أن ذلك يكون بضم النظراء مع بعضهم.

روى مجاهد وسعيد بن جبير، عنه: {أَزْوَاجَهُمْ}: قُرَنَاءهم.

"وما كانوا يعبدون من دون الله" أي: من الأصنام والأنداد، تحشر معهم في أماكنهم.

هذا دل عليه القرآن {إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ} [سورة الأنبياء:٩٨]، وفي قوله تعالى: {قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ} [سورة التحريم:٦]، والسبب الأصنام التي كانوا يعبدونها مع قول من قال: إن ذلك حجارة الكبريت؛ لأنها تتوقد عليهم، وهو لا ينافي ما ذكر من أنها الأصنام أيضاً، فلماذا تحشر معهم الأصنام؟ يكون ذلك تبكيتاً لهم لزيادة حسرتهم، والله المستعان.

وقوله: {فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ} أي: أرشدوهم إلى طريق جهنم، وهذا كقوله تعالى: {وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا} [سورة الإسراء:٩٧].

قوله -تبارك وتعالى-: {أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ} [سورة الحج:٤] يعني الشيطان، كتب عليه {أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ}، كقوله هنا: {فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ} يعني دلُّوهم، هذه الهداية هداية الإرشاد دلوهم إلى طريق النار، وكذلك في قوله: {وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ} يعني أنه يدله عليه، يدله إلى عذاب النار بما يقارفه من الضلالات الشرك بالله -عز وجل- والأهواء والجرائم والمعاصي، وهذا معنى كون الشيطان يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير.

وقوله: {وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ} أي: قفوهم حتى يُسألوا عن أعمالهم وأقوالهم التي صدرت عنهم في الدار الدنيا كما قال الضحاك، عن ابن عباس: يعني احبسوهم إنهم محاسبون.

وقال عبد الله بن المبارك: سمعت عثمان بن زائدَةَ يقول: إن أول ما يُسأل عنه الرجل جلساؤه، ثم يقال لهم على سبيل التقريع والتوبيخ: {مَا لَكُمْ لا تَنَاصَرُونَ} أي: كما زعمتم أنكم جميع منتصر، {بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ} أي: منقادون لأمر الله، لا يخالفونه ولا يحيدون عنه، والله أعلم.

قوله: {وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ} قال: **أي قفوهم حتى يُسألوا عن أعمالهم وأقوالهم التي صدرت عنهم في الدار الدنيا** هذا هو المتبادر، وبعضهم يقول: {وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ} يعني من المسئولية يعني أنهم

محاسبون، وأنت مسئول عن كذا أي محاسب على ذلك، وبعضهم يقول: {وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ} يعني أهذا شيء يرضيكم ويعجبكم أنكم تساقون إلى النار؟، وما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هو المتبادر، والآية الأخرى مضى في بعض المناسبات الجمع بينهما، أي ما جاء من نفي السؤال يوم القيامة لهؤلاء الكفار {فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ} [سورة الرحمن:٣٩] فهناك نفى السؤال وهنا أثبته {وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ}، هناك لا يسأل سؤال استعتاب، يعني المنفي أن يسأل سؤال استعتاب سؤال من ينتظر منه الجواب ليحصل له المخرج والعذر، وهنا يسأل سؤال تبكيت كالذي وقع في مصيبة وفي بلاء فيأتيه من يوبخه ويبكته أي من الذي أوقعك في هذا؟، {وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ}، وبعض أهل العلم يقول: إن يوم القيامة يوم طويل ففي بعض المواقف {لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ} وفي بعض المواقف يحصل السؤال. {وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ * قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ * قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ * وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ * فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ * فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ * فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ * إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ * إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ * وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ * بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ} [سورة الصافات:٢٧-٣٧].

يذكر تعالى أن الكفار يتلاومون في عَرَصات القيامة، كما يتخاصمون في دَرَكات النار، {فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ} [سورة غافر:٤٧، ٤٨]، وقال: {وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ * وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الأَغْلالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [سورة سبأ:٣١-٣٣].

هذه الآيات تصور ما يقع في ذلك اليوم بجلاء كأنك تشاهده، ولكنها الغفلة الغالبة بهذه الدار الدنيا، فهؤلاء حينما يرون العذاب، وتتقطع بهم الأسباب، ويكونون في حال من الحسرة والندامة يتوجه بعضهم إلى بعض بالملامة، فيقول الأتباع للأئمة المضلين الذين أضلوهم من شياطين الإنس وشياطين الجن يقولون لهم: {إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ...} إلى آخر الآيات، فهنا أثبت هذا التساؤل بينهم، و في الموضع الآخر قال الله -تبارك وتعالى-: {فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ} [سورة المؤمنون:١٠١]، فهناك لا يتساءلون بمعنى أنهم لا يتفقد بعضهم بعضاً ولا يسأله عن حاله كل أحد مشغول بنفسه، وهنا يتساءلون على وجه التلاوم، وذلك أشد في الحسرة كما هو معلوم، فالناس إذا وقعوا في ورطة أو مصيبة ليسوا بحاجة إلى أن يرجع بعضهم إلى بعض بالملامة فإن ذلك لا يجدي عنهم شيئاً ولا ينفعهم، ولا يرجعون منه بشيء، إنما هو مزيد من التحسر والتبكيت والألم كما هو معلوم، فهؤلاء في القيامة -نسأل الله العافية- إذا تقطعت بهم الأسباب وعاينوا الهلكة ويئسوا من النجاة صار بعضهم يلوم بعضاً {إِنَّكُم كُنتُم} هؤلاء الأتباع {إِنَّكُم كُنتُم تَأتُونَنَا عَنِ ٱليَمِينِ}، {قَالُواْ بَل لَّم تَكُونُواْ مُؤمِنِينَ} قالوا: نحن وجدنا أناساً فيهم خفة لقبول الكفر بالله -تبارك وتعالى-

ولم يكن عندهم من اليقين الذي يحجزهم عن ذلك فسارعوا وبادروا إلى تلقيه عنا وتقبّله، فأصبحنا مشتركين بهذا الكفر والضلال، {وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ * فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ * فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ} هؤلاء الكبار من أئمة الضلال من شياطين الإنس ومن شياطين الجن هذه هي النهاية، يقولون لهم مثل هذا الكلام بعدما كانوا في الدنيا يتبنونهم ويدافعون عنهم، ويعملون ليل نهار في إضلالهم، وإغوائهم كما قال الله -عز وجل-: {وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا} [سورة سبأ:٣٣]، بمعنى أنه مكر واقع في الليل والنهار لا يفتئون ولا يفترون من هذا المكر والتحيل والتخطيط والعمل الدائب؛ من أجل إضلال الناس وإغوائهم وإفسادهم ثم تكون هذه هي النهاية، في نهاية المطاف هذه الصورة النهائية لهؤلاء المضلين، ومن تابعهم وهذه عبرة عظيمة لمن كان له قلب ولكنها الغفلة، -والله المستعان-، ويحتاج المؤمن أن يعرض هذا على قلبه، وأن يعرض قلبه على هذا دائماً ليكون ذلك له واعظاً، وكثير من الأشياء يسمعها الإنسان ولكنها قد تمر على أذنيه كأنه لم يسمعها، لكن إذا سمعها وقت الشدة التي تتحدث عنها الآيات فكأنما يسمعها لأول مرة، كل ما يجري في القيامة الله قصه وأخبر عنه ومع ذلك قلما نعتبر، والله المستعان.

وهكذا قالوا لهم ههنا: {إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ} قال الضحاك، عن ابن عباس: يقولون: كنتم تقهروننا بالقدرة منكم علينا، لأنا كنا أذلاء وكنتم أعزاء.

وقال قتادة: قالت الإنس للجن: {إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ} قال: من قِبَل الخير، فتنهوْننا عنه وتبطئوننا عنه.

وقال السدي: تأتوننا من قِبَل الحق، تزينون لنا الباطل، وتصدوننا عن الحق.

وقال ابن زيد: معناه تحولون بيننا وبين الخير، ورددتمونا عن الإسلام والإيمان والعمل بالخير الذي أمرنا به.

وقال يزيد الرشْك: من قِبَل لا إله إلا الله.

من قِبل لا إله إلا الله، من قبل الإيمان والتوحيد يعني يوقعونهم في الشرك، و هنا هذا التساؤل الذي أخبر الله -عز وجل- عنهم: {وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ * قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ} الآيات الحافظ ابن كثير -رحمه الله- حمل ذلك على أن الكفار يتلاومون في عَرصات يوم القيامة كما يتخاصمون في دركات النار، يعني الأتباع يتخاصمون مع المتبوعين الأتباع مع الرؤساء، وهذا داخل في هذا المعنى والآيات تدل عليه، كذلك في قوله تعالى: {فَيَقُولُ الضُّعَفَاء لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ} [سورة غافر:٤٧]، وبعض السلف حمل ذلك هنا {وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ}، أن هذا التساؤل وهذه المجاوبة بين هذين الطرفين هي واقعة بين الكفار والشياطين الذين أضلوهم، هذا قال به مجاهد وقتادة واختاره كبير المفسرين أبو جعفر بن جرير -رحمه الله-، ويمكن أن يحمل -والله تعالى أعلم- على الطائفتين من الذين ضلوا والذين أضلوهم، يعني الشياطين من الإنس والجن، يحصل هذا التجاوب والتساؤل بين الأتباع والمتبوعين، بين هؤلاء الذين وقع لهم الإضلال مع من أضلوهم، وقوله -تبارك وتعالى- عنهم: {قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ} يقول: **قال الضحاك عن ابن عباس: يقولون كنتم**

تقهروننا بالقدرة منكم علينا لأنا كنا أذلاء وكنتم أعزاء هذا بناء على أن اليمين التي في كلام العرب -في لغة العرب- بمعنى القوة والقدرة، فراغ عليهم ضرباً باليمين، باليمين بمعنى القوة {إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ} يعني بالقهر والتسلط والمغالبة؛ لأن هؤلاء هم الرؤساء وأولائك هم الضعفاء والأتباع، يقول: كنتم تأتوننا بطريق السلطة فحصل لنا من قِبَلكم هذا الإضلال، فسر اليمين هنا بالقوة، وقال قتادة: **قالت الإنس للجن**، ويقول: إن المجاوبة بين الإنس والجن، بينهم وبين الشياطين، {إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ} قال: **من قِبل الخير فتنهوننا عنه وتبطئوننا عنه**، وهكذا قول السدي: **تأتوننا من قِبَل الحق تزينون لنا الباطل وتصدوننا عن الحق**، وهكذا قول ابن زيد: **تحولون بيننا وبين الخير ورددتمونا عن الإسلام والإيمان والعمل بالخير الذي أمرنا به**، وهكذا قول من قال: من قِبَل لا إله إلا الله، فصار حاصل ما ذكره ابن كثير -رحمه الله- من المعاني اثنين الأول اليمين، والثاني الخير فإنه يقال له ذلك، بمعنى أنهم صرفوهم عن الحق والهدى وطاعة الله وطاعة رسوله -صلى الله عليه وسلم- وزهدوهم في ذلك، وزينوا لهم في المقابل الكفر والبدع والضلالات والأهواء بمختلف أنواعها، وبعضهم فسر ذلك بالحلف، اليمين بمعنى القسم، والحلف يقال له: يمين، وأصل ذلك أن الحالف كان يأخذ بيمين صاحبه فيؤكد القول الذي هو الحلف بالعمل، الأخذ باليمين، وقد تنوسي ذلك يعني الأخذ باليد اليمنى فصار يقال اليمين لكل حلف سواء أخذ بيمينه أو لم يأخذ بيمينه، فهذا قال به بعض أصحاب المعاني -أعني معاني القرآن- قالوا: إن المراد بذلك الحلف، الرؤساء كانوا يحلفون لهم يقسمون أن هذا هو الحق، {مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ} [سورة غافر:٢٩] هذا هو الحق الذي ندعوكم إليه ونختاره لكم، وبعضهم يقول: إن اليمين المقصود بها الكناية عما يتفاءل به كما هي عادة العرب، والذي يظهر -والله تعالى أعلم- هو أن المقصود باليمين الخير والإيمان والحق، ولهذا يقول ابن جرير -رحمه الله-: إن ذلك واقع بين الإنس والشياطين من الجن الذين يضلونهم، يقول: إن الإنس تقول للجن: إنكم كنتم تأتوننا من قبل الدين والحق فتخدعوننا بأقوى الوجوه، ويذكر أن اليمين في كلام العرب تأتي بمعنى القدرة، والقوة، فحاول أن يجمع بين المعنيين كما سبق أن من أهل العلم من قال: اليمين بمعنى القوة، ومن قال: إن اليمين يعني الخير والحق وما إلى ذلك يقال له: يمين، فابن جرير -رحمه الله- جمع بين المعنيين، {قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ} يعني تصرفوننا عن الحق والهدى والإيمان بأقوى الطرق والأساليب، فهذا من الأشياء التي تميز بها تفسير ابن جرير -رحمه الله- وكذا تفسير ابن كثير: الجمع بين المعاني الراجحة، أو القريبة التي تحتملها الآية {كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ} فجمع بين معنى القوة والمعنى الآخر المشهور الذي هو الخير، وهذه المجاوبة -والله تعالى أعلم- هي واقعة بين الأتباع والمتبوعين بين الشياطين من الإنس والجن والذين تبعوهم فضلوا بسببهم، يقول: {كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ} فتصرفوننا عن الحق والهدى الذي جاءت به الرسل -عليهم الصلاة والسلام- ويقول أولائك: أنتم ما فيكم خير، أنتم قابلون لهذا متهيئون له لم نلزمكم ولم يكن لنا عليكم سلطان بل كنتم أهل غواية وضلال.

وقوله: {قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ} تقول القادة من الجن، والإنس للأتباع: ما الأمر كما تزعمون، بل كانت قلوبكم منكرة للإيمان، قابلة للكفر والعصيان، {وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ} أي: من حجة على صحة ما دعوناكم إليه، {بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ} أي: بل كان فيكم طغيان ومجاوزة للحق، فلهذا استجبتم لنا

وتركتم الحق الذي جاءتكم به الأنبياء، وأقاموا لكم الحجج على صحة ما جاءوكم به، فخالفتموهم.

{فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ}، يقول الكبراء للمستضعفين: حقت علينا كلمة الله: إنا من الأشقياء الذائقين العذاب يوم القيامة، {فَأَغْوَيْنَاكُمْ} أي: دعوناكم إلى الضلالة.

هنا قوله -تبارك وتعالى- عن قيلهم: {فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ} قال: **حقت علينا كلمة الله: إنا من الأشقياء الذائقين للعذاب يوم القيامة،** حقت عليهم كلمته أنهم من أهل الخسار والشقاء والعذاب، وبعضهم يقول: قصدوا بذلك ما جاء في قوله -تبارك وتعالى-يعني حقت علينا {فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا}- وهو: {لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ} [سورة ص:٨٥]، يقولون: قصدوا هذا المعنى، وهذا قال به بعض أهل العلم ومنهم من المعاصرين الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله-، وعبارة ابن جرير قريبة أيضاً مما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- يقول: وجب علينا عذاب ربنا، وقول الله -تبارك وتعالى-: {لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ} يعني إبليس {وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ} هذا غير مخالف لما ذكر فهذا بمعنى أنه حقت عليهم كلمة العذاب أنهم أهل الشقاء فوجب عليهم عذاب الله -تبارك وتعالى- فكانوا من الأشقياء.

{إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ} أي: فدعوناكم إلى ما نحن فيه، فاستجبتم لنا، قال الله تعالى: {فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ} أي: الجميع في النار، كل بحسبه، {إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ إِنَّهُمْ كَانُوا} أي: في الدار الدنيا {إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ} أي: يستكبرون أن يقولوها، كما يقولها المؤمنون.

روى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فمن قال: لا إله إلا الله فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه، وحسابه على الله، وأنزل الله في كتابه -وذكر قوما استكبروا- فقال: {إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ}))[٤].

{وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ} أي: أنحن نترك عبادة آلهتنا وآلهة آبائنا عن قول هذا الشاعر المجنون، يعنون رسول الله -صلى الله عليه وسلم-؟! قال الله تعالى تكذيبا لهم، وردا عليهم: {بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ} يعني رسول الله -صلى الله عليه وسلم- جاء بالحق في جميع شرْعة الله له من الإخبار والطلب، {وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ} أي: صدّقهم فيما أخبروا عنه من الصفات الحميدة، والمناهج السديدة، وأخبر عن الله في شرعه وأمره كما أخبروا، {مَا يُقَالُ لَكَ إِلا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ} الآية [سورة فصلت:٤٣].

عبارة الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا صدقهم فيما أخبروا عنه من الصفات الحميدة، والضمير في عنه يرجع إلى النبي -صلى الله عليه وسلم-، يعني كما أخبر الأنبياءُ قبله عن صفته -عليه الصلاة والسلام-

---

٤ - رواه ابن أبي حاتم في تفسيره (٣٢١٠/١٠)، برقم (١٨١٧١)، وأصله في الصحيحين بدون الزيادة الأخيرة، البخاري، كتاب الزكاة، باب وجوب الزكاة، برقم (١٣٣٥)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ويؤمنوا بجميع ما جاء به النبي -صلى الله عليه وسلم- وأن من فعل ذلك عصم نفسه وماله إلا بحقها ووكلت سريرته إلى الله تعالى وقتال من منع الزكاة أو غيرها من حقوق الإسلام واهتمام الإمام بشعائر الإسلام، برقم (٣٢).

فكان واقعه مصدقاً بخبره {وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ} قال: **وأخبر عن الله تعالى بشرعه وأمره كما أخبروا** يعني أنه -صلى الله عليه وسلم- صدقهم فيما قالوا وأقر بذلك ودعا إليه، ومن ثم فهذه العبارة لابن كثير الواقع أنها تتضمن معنيين تحتمله الآية لكن الذي يقرؤها لأول وهلة لا يتفطن لهذه الدقة بهذه العبارة كما هو في كثير من المواضع من هذا التفسير، وذلك أنه يجمع بين المعاني المحتملة التي لا يوجد ما يرجح بعضها على بعض، والقاعدة أن الآية إذا كانت تحتمل معنيين فإنه يمكن حملها على ذلك ما لم يوجد مانع، والحافظ ابن القيم -رحمه الله- فسرها بهذين، ولكنه صرح بهذا فذكر المعنيين صراحة وحملها عليهما، يعني من كونه -صلى الله عليه وسلم- كان مصدقاً لهم بخبرهم عنه هذا المعنى الأول، أخبروا أنه يأتي وأخبروا عن صفته فجاء كما أخبروا، فمجيئه -صلى الله عليه وسلم- وبعثه كان تصديقاً لهؤلاء الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- الذين أخبروا أنه سيبعث، وأن من صفته كذا وكذا، والمعنى الثاني: أنه شهد هو -صلى الله عليه وسلم- بصدقهم {وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ}.

{إِنَّكُمْ لَذَائِقُو الْعَذَابِ الأَلِيمِ * وَمَا تُجْزَوْنَ إِلا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * إِلا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ * أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ * فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ * فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ * يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ * بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ * لا فِيهَا غَوْلٌ وَلا هُمْ عَنْهَا يُنزِفُونَ * وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ * كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ} [سورة الصافات:٣٨-٤٩].

يقول تعالى مخاطبًا للناس: {إِنَّكُمْ لَذَائِقُو الْعَذَابِ الأَلِيمِ * وَمَا تُجْزَوْنَ إِلا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}، ثم استثنى من ذلك عباده المخلصين، كما قال تعالى {وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} [سورة العصر:١-٣].

وقال: {لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ * إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} [سورة التين:٤-٦]، **وقال: {وَإِنْ مِنْكُمْ إِلا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا * ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا}** [سورة مريم:٧١-٧٢]، **وقال: {كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ * إِلا أَصْحَابَ الْيَمِينِ}** [سورة المدثر:٣٨-٣٩]، **ولهذا قال هاهنا: {إِلا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ} أي: ليسوا يذوقون العذاب الأليم، ولا يناقشون في الحساب، بل يُتجاوز عن سيئاتهم، إن كان لهم سيئات، ويجزون الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، إلى ما يشاء الله تعالى من التضعيف.**

قوله -تبارك وتعالى- {إِلا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ} هذه قراءة أهل المدينة وأهل الكوفة، وقرأ الجمهور بكسر اللام {إِلا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ} والمخلِصين هذا بمعنى الإخلاص، فإن الله -تبارك وتعالى- يخلصهم لإخلاصهم، فالأول {إِلا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ} يعني الذين أخلصهم الله -تبارك وتعالى- لطاعته وعبادته وتوحيده والإيمان به، وعلى القراءة الثانية {إِلا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ} هذا يدل على أن الإخلاص من ثمراته العظيمة أن يكون سبباً للنجاة من عذاب الله -تبارك وتعالى- وهذا أمر مقرر بأدلة كثيرة لا يحتاج إلى توضيح، والاستثناء هنا {إِلا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ} يحتمل أن يكون متصلاً، وأن يكون منقطعاً، وهنا قال: {إِنَّكُمْ لَذَائِقُو الْعَذَابِ الأَلِيمِ * وَمَا تُجْزَوْنَ إِلا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * إِلا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ} إذا كان منقطعاً فهو بمعنى لكن، لكن عباد الله المخلصين أولائك لهم رزق معلوم، وإذا كان متصلاً فيكون العذاب للجميع قال هنا:

{إِنَّكُمْ لَذَائِقُو الْعَذَابِ الأَلِيمِ * وَمَا تُجْزَوْنَ إِلا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * إِلا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ} ما تجزون إلا ما كنتم تعملون، إن "ما" هذه للعموم ثم بعد ذلك استثنى {إِلا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ}.

وقوله: {أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ} قال قتادة، والسدي: يعني الجنة، ثم فسره بقوله تعالى {فَوَاكِهُ} أي: متنوعة {وَهُمْ مُكْرَمُونَ} أي: يُخْدمون ويرفهون وينعمون، {فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ} قال مجاهد: لا ينظر بعضهم في قفا بعض.

قوله -تبارك وتعالى- هنا: {أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ} بعضهم يقول: أي في طيبه وحسنه وما إلى ذلك، ولكن ما جاء بعده يمكن أن يكون تفسيراً له كما هو الظاهر {أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ}، وهذا الرزق المعلوم هو {فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ}، وهذا الذي اختاره أبو جعفر بن جرير -رحمه الله- أن ما بعده هو المقصود بهذا الرزق المعلوم، وبعضهم يقول: معلوم الوقت، وهذا لا حاجة إليه، **قال قتادة والسدي: يعني الجنة، ثم فسره بقوله: {فَوَاكِهُ} أي: متنوعة**، قول من قال: إنه الجنة، {أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ} لا ينافي ما ذكر من التفاصيل فإن ذلك كله من نعيم الجنة، قال: {فَوَاكِهُ} أي فواكه متنوعة، وخصت الفواكه في قوله: {فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ} مع أن نعم الجنة كثيرة بعضهم يقول: إنها خصت لأنها من أطيب ما يلتذ به الإنسان من المطعومات، وبعضهم يقول: لأن ما بعدها هو تبع لها، يعني أنها من المكمَّلات، وما يحصل بعد ذلك أو قبله فهي من التوابع والمكمِّلات، فإذا كانت هذه التوابع والمكمِّلات فما بال المطعومات الأخرى التي تكون قبلها وبعدها؟!، وبعضهم يقول: طعام أهل الجنة {فَوَاكِهُ} ولذلك قال هنا: {فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ} وهذا فيه نظر، وذَكر نوعاً من ألوان المطعومات في الجنة ولا شك أنه من أحسنها وأعظمها لذة كما هو الحال في الدنيا فإن ذلك يكون زيادة على المطعومات الأساسية، يعني تقول: فلان يتفكه، فالتفكه إنما يكون فيما زاد على ما كان أصلياً من المطعومات فهؤلاء يتفكهون بهذه الفواكه ويتمتعون ويلتذون بها فذكر مثل هذه الأشياء التي يحصل بها التنعم والالتذاذ وهو زائد على ما يكون أساسياً في المطعومات، -والله تعالى أعلم-، قال هنا: {فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ} **أي يُخدمون ويرفهون وينعمون، {فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ} قال مجاهد: لا ينظر بعضهم إلى قفا بعض**، وبعضهم يقول: تدور بهم هذه السرر حيث شاءوا فلا يحتاج الواحد منهم إلى أن يستدير بظهره إلى ناحية أخرى فهم متقابلون، ولا شك أن التقابل في المجالس مما يحصل به التنعم، ويكون ذلك من طيب هذه المجالس، ومن دواعي الاسترواح فيها أن الناس يتقابلون، يتقابلون فيها.

وقوله: {يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ}.

قبل هذا قوله -تبارك وتعالى-: {يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ} الكأس في اللغة: كل إناء فيه شراب، وبعضهم يقول: إن المقصود بالكأس هنا الخمر، وإن العرب تطلقها وتريد بها ذلك، وهذا الإطلاق موجود في كلام العرب معروف، وإن كانت الكأس تقال فيما هو أعم من ذلك، وإلا فقد جاء عن بعض السلف كالضحاك أن كل كأس في القرآن فهو خمر، يعني كلما ذكرت الكأس في القرآن فالمقصود بذلك الخمر وبهذا قال السدي، هنا قال: {يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ} ولا شك أن المقصود بالكأس هنا في هذا الموضع أنه الخمر، لكن تخصيص هذا بأن يقال في اللغة إذا قيل الكأس فهو الخمر -وإلا فإنهم يقولون: لقدح غير الخمر إذا كان فيه لبن مثلاً أو ماء أو نحو هذا- فهذا وإن قال به بعض أهل اللغة إلا أن ذلك ليس مطرداً،

والمقصود بالكأس هنا الخمر قال: {مِنْ مَعِينٍ * بَيْضَاء لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ} فهي تجري، معين يعني جارية على وجه الأرض، أنهار من الخمر تجري على وجه الأرض وليست غائرة فيها، ولا تحتاج إلى أخاديد كما هو الحال بالنسبة لأنهار الدنيا، فهي بادية للأعيان.

{بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ * لا فِيهَا غَوْلٌ وَلا هُمْ عَنْهَا يُنزفُونَ}، كما قال في الآية الأخرى: {يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ * بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ، لا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلا يُنْزِفُونَ} [سورة الواقعة:١٧-١٩]، فنزه الله خمر الآخرة عن الآفات التي في خمر الدنيا، من صداع الرأس ووجع البطن -وهو الغول.

المقصود بقوله: {بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ} أنها صافية بصفائها، شدة الصفاء، بخلاف خمر الدنيا، فيقال لها: {بَيْضَاءَ} أو المقصود البياض الذي هو البياض المعروف يحتمل، وجاء عن بعض السلف كالحسن البصري أن خمر الجنة أشد بياضاً من اللبن؛ لأنها شديدة البياض، لونها مشرق، ومشرق بمعنى أنها بغاية الصفاء، ولا يلزم من ذلك أن تكون بيضاء البياض الذي يتبادر إلى الأذهان كبياض اللبن.

نزه الله خمر الآخرة عن الآفات التي في خمر الدنيا، من صداع الرأس ووجع البطن -وهو الغول- وذهابها بالعقل جملة، فقال تعالى هاهنا: {يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ} أي: بخمر من أنهار جارية، لا يخافون انقطاعها ولا فراغها.

قال مالك، عن زيد بن أسلم: خمر جارية بيضاء، أي: لونها مشرق حسن بهى لا كخمر الدنيا في منظرها البشع الرديء، من حمرة أو سواد أو اصفرار أو كُدورة، إلى غير ذلك مما ينفر الطبع السليم.

وقوله -عز وجل-: {لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ} أي طعمها طيب كلونها، وطِيب الطعم دليل على طيب الريح، بخلاف خمر الدنيا في جميع ذلك.

يعني أنها كريهة المنظر، كريهة الرائحة، كريهة الأثر.

وقوله: {لا فِيهَا غَوْلٌ} يعني: لا تؤثر فيهم غولا -وهو وجع البطن، قاله ابن عباس ومجاهد، وقتادة، وابن زيد- كما تفعله خمر الدنيا من القُولَنْج ونحوه، لكثرة مائيتها.

القُولنج وجع البطن، دائماً يصيب البطن يعني يصيبه بالوجع والمغص، ويكون في هذا الجزء من الأمعاء الذي يسمى اليوم بالقولون، وقديماً كان يقال له: القولون أيضاً، فيحصل بسبب ذلك أوجاع وإمساك شديد وهو من الأمراض المشهورة المعروفة قديماً وحديثاً، وأوجاع القولون كثيرة لكن الذي يقصدونه هنا نوع من هذه الأوجاع المشهورة التي يصيب الإنسانَ معها الألمُ الشديد الذي لا يطاق، وقد يحصل معه الوفاة، يذكرونه في كتب الطب القديم في مواضع كثيرة؛ لأنه من الأمراض المشهورة جداً، ويذكرون في كتب الأعشاب والأدوية، يذكرون الأشياء التي تفيد معه كثيراً يقولون: الشيء الفلاني، الطعام الفلاني، العشبة الفلانية نافعة يتكرر هذا كثيراً، والقولنج عندهم أنواع منها ما هو رطب بارد، وهنا قالوا: لكثرة مائيتها، إذاً قوله -تبارك وتعالى-: {لا فِيهَا غَوْلٌ} الغول فُسر بوجع البطن الذي يصيبه بسبب الخمر، لذلك تجدون -أعزكم الله- هؤلاء يستفرغون غالباً بعدها، ولذلك تجدون في بلاد الغرب وما شابهها من البلاد التي تبيح الخمر يعاني أصحاب الحانات والأماكن التي تبيع الخمور معاناة شديدة من أمور كثيرة منها ما يحصل من السكارى، ومنها ما يحصل أيضاً من الأذى والقذر بأن هؤلاء يبدءون يستفرغون بهذا المحل، ففسر بوجع البطن، وفسر

أيضاً بالصداع، وفسر أيضاً بذهاب العقل إذا سكر الإنسان، فبعض أهل العلم جمع هذه المعاني في تفسيرها وقال: إن نفي الغول عنها بمعنى أنها لا تغتال عقول شاربيها، ولا يصيبهم منها الصداع وأوجاع البطن، فجمعوا بين هذه المعاني، وبعضهم اقتصر على ذهاب العقل، قال: الغول هو ذهاب العقول تغتال العقول، هذا قال به أبو عبيدة من أهل اللغة وهو اختيار ابن جرير -رحمه الله-، {لا فِيهَا غَوْلٌ} لا تذهب عقولهم بسبب شربها، وأصل الغول -فيما يذكره بعض المفسرين كالواحدي- هو الإهلاك، الغول يأتي بمعنى الهلاك، أصله قالوا: بمعنى الهلاك، {لا فِيهَا غَوْلٌ} أي إهلاك، كل ما اغتالك فهو يقال له: غول، وحاول بعضهم أن يجمع المعاني التي قيلت بطريقة أخرى فقال: كل ما يحصل به الإهلاك بطريق خفي أو كل ما يحصل به الفساد بطريقٍ خفي فهو غول، فساد العقل وفساد مزاج البدن بالصداع والمغص والوجع الذي يكون في البطن، {لا فِيهَا غَوْلٌ} يعني مثلاً الحسن البصري اقتصر على الصداع، وابن كيسان اقتصر على المغص، والسلف يفسرون الآية بجزء المعنى، فإذا كان هؤلاء أهل اللغة، وفسر بعضهم بهذا وبعضهم بهذا ونحن نعلم أنه يفسره ببعض المعنى، ومن ثم إذا كان ذلك فيصدق على هذه جميعاً أنها {غَوْلٌ} فلا يكون فيها {غَوْلٌ} فلا تذهب بالعقول، ولا يفسد معها مزاج البدن بصداع أو مغص أو وجع البطن، والله أعلم.

وقوله: {وَلا هُمْ عَنْهَا يُنزِفُونَ} قال مجاهد: لا تذهب عقولهم، وكذا قال ابن عباس، ومحمد بن كعب، والحسن، وعطاء بن أبي مسلم الخرساني، والسدي، وغيرهم.

وقال الضحاك، عن ابن عباس: في الخمر أربع خصال: السكر، والصداع، والقيء، والبول، فذكر الله خمر الجنة فنزهها عن هذه الخصال، كما ذكر في سورة الصافات.

قوله: {لا فِيهَا غَوْلٌ وَلا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ} قراءة الجمهور {يُنزَفُونَ} وفي قراءة حمزة والكسائي بضم الياء وكسر الزاي {يُنزِفُونَ} وهاتان القراءتان كل قراءة لها معنى، فقراءة حمزة والكسائي {يُنزِفُونَ} تحتمل معنيين بمعنى أن المراد أنزف الرجل إذا فنيت خمره يعني تفنى وتنقضي وتنفد، والمعنى الثاني الذي هو الذهاب، أنزف الرجل ذهب عقله، أما {يُنزَفُونَ} فيكون بمعنى ذهاب العقول ولهذا تجدون من فسر الأول {لا فِيهَا غَوْلٌ} بوجع البطن، أو الصداع أو نحو ذلك وما فسره بذهاب العقل مع أنه يأتي بمعناه كأنهم راعوا هذا ألا يكون هناك تكرار فقصروا الأول على بعض معانيه، {لا فِيهَا غَوْلٌ}، والثاني على معنى ذهاب العقل على قراءة {يُنزَفُونَ} وهذا ملحظ لا إشكال فيه في التفسير، ولو أن قائلاً أيضاً قال: إن الأول عام {لا فِيهَا غَوْلٌ} لا يتطرق الفساد إليهم بشربها بذهاب العقول، ولا اختلال مزاج الأبدان بوجع الرأس وألم البطن، وأنه ذكر بعده معنى أخص وهو المشهور وهو الأعظم و الأنكى الذي حرمت من أجله الخمر وهو ذهاب العقول فيكون من قبيل عطف الخاص على العام، فذكر مفسدة أفردها هي أعظم مفاسد الخمر فيكون هذا خاصا والأول عاما، الغول، لو قال أحد بهذا لكان ذلك له وجه قريب من النظر، -والله تعالى أعلم- لاسيما أنه تفسير له بمعناه الذي يدل عليه بلغة العرب، فإن الخمر تطلق على هذا وهذا، ولكن هذه القراءة التي تكون بضم الياء وكسر الزاي {يُنزِفُونَ} تحتمل المعنيين أنها تنفد، أو تذهب بالعقول، بعض أهل العلم فسرها بالأول قال: إن هذه القراءة {يُنزِفُونَ} بمعنى أنها لا تفنى، أنزف الرجل إذا فنيت خمره، وهذا المعنى اختاره ورجحه الفراء وابن جرير من أجل أن كل قراءة يكون لها معنى، فتكون {يُنزَفُونَ} بمعنى تذهب عقولهم

و{يُنزِفُونَ} بمعنى تفنى خمرهم، والقراءتان إذا كان لكل قراءة معنى يخصها فهما بمنزلة الآيتين، فدلت إحدى القراءتين على أنها لا تذهب بالعقول، ودلت القراءة الثانية على أن هذه الخمر لا تنفد، فهي أنهار من الخمر، والله تعالى أعلم.

تم بحمد الله وفضله.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الصافات من الآية (٤٨) إلى الآية (٧٠)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله أجمعين، وبعد.

اللهم اغفر لنا ولشيخنا والحاضرين والمستمعين.

وقوله تعالى: {وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ} [سورة الصافات:٤٨] **أي: عفيفات لا ينظرن إلى غير أزواجهن، كذا قال ابن عباس، ومجاهد، وزيد بن أسلم، وقتادة، والسدي، وغيرهم.**

وقوله: {عِينٌ} **أي: حسان الأعين، وقيل: ضخام الأعين، وهو يرجع إلى الأول، وهي النجلاء العيناء، فوصف عيونهن بالحسن والعفة، ولهذا قال:** {وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ}.

وقوله: {كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ} **وصفهن بترافة الأبدان بأحسن الألوان.**

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس -رضي الله عنهما-: {كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ} **يقول: اللؤلؤ المكنون.**

وقال الحسن: {كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ} **يعني: محصون لم تمسه الأيدي.**

وقال السدي: البيض في عشه مكنون.

وقال سعيد بن جبير: {كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ}**، يعني: بطن البيض.**

وقال عطاء الخرساني: هو السحاء الذي يكون بين قشرته العليا ولباب البيضة.

وقال السدي: {كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ} **يقول: بياض البيض حين ينزع قشره، واختاره ابن جرير لقوله:** {مَكْنُونٌ}**، قال: والقشرة العليا يمسها جناح الطير والعش، وتنالها الأيدي بخلاف داخلها، والله أعلم.**

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ}، قال: **أي عفيفات لا ينظرن إلى غير أزواجهن،** وقوله: {عِينٌ} **أي: حسان الأعين، وقيل: ضخام الأعين، وهو يرجع إلى الأول،** يعني أن الأعين إذا كانت واسعة فإن ذلك يكون من قبيل الحسن والجمال فيها، ومن ثَمّ مَن قال: ضخام الأعين فإن هذا يرجع إلى قول من قال: حسان الأعين؛ لأن ذلك يكون زينة في العين، قال: **وهي النجلاء العيناء،** يعني واسعة العين، وهذا الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله- {عِينٌ} يعني واسعات الأعين جمع عيناء، قال: فوصف عيونهن بالحسن والعفة، الحسن من قوله: {عِينٌ} والعفة من قوله: {قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ} يعني لا ينظرن إلى غير أزواجهن، وقوله: {كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ} قال هنا: **وصفهن بترافة الأبدان بأحسن الألوان،** وجاء عن الحسن البصري أن تفسيره بشديدات بياض العين مع شدة السواد إنما يعرف بمعنى الحَوَر، فالحَوَر فسر بشدة البياض في العين مع شدة السواد، وهنا في قوله: {كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ} نقل عن ابن عباس -رضي الله عنهما- {كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ} يقول: **اللؤلؤ المكنون** كما قال الله -عز وجل-: {وَحُورٌ عِينٌ * كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ} [سورة الواقعة:٢٢-٢٣]، فحاصل قوله: {كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ} أن اللؤلؤ مكنون في أصدافه فهو في غاية الصفاء لم

تمسه الأيدي، والمعنى الآخر كالبيض في بياضه بلونه الذي يميل إلى شيء من الصفرة، يقولون: وهذا أحسن الألوان بالنسبة للنساء، البياض الذي يضرب إلى الصفرة وهؤلاء يرِد عليهم إشكال، وهو أن هذا البيض ليس بمكنون باعتبار أن الطائر يمسه، فكيف قال عنه: إنه مكنون؟ والذين قالوا إنه المراد قالوا: فإن الطائر يكنه يغطيه ولا يمسه شيء، وبعضهم خصه ببيض النعام، فقالوا: فإنه مكنون بريشه، وهذا قول من قال: إنه البياض الذي يضرب إلى الصفرة فذلك بيض النعام وليس كل بيض، ومن نظر إلى هذا الإشكال الذي يرد على هذا التفسير وأراد حمل اللفظ على ظاهره باعتبار أن البيض هو البيض، فإذا أطلق تبادر الذهن إلى هذا المعنى المعروف، فمن نظر إلى هذا الإشكال قال: {كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ} يعني ما تحت القشرة، فما تحت القشرة من بياض البيض مغطى أيضاً بهذا السحاء الذي هو قشرة رقيقة فهذا لم تمسه الأيدي، {كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ}، فهو في حال من حسن المنظر واللين، وما مسته الأيدي، ما مسه شيء بخلاف ظاهر البيض، قال: {كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ} فهذا حاصل الأقوال في هذه الآية، وهذه الأقوال الثلاثة ترجع إليها سائر الأقوال، {وَحُورٌ عِينٌ * كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ}، ويحتج من يقول بأن المقصود بـــ {كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ} اللؤلؤ في استدارته بأنه كالبيض بهذا الاعتبار، وهذا كله تقوله العرب حتى اللؤلؤ يقولون له: بيض بكلامهم، فمن فسره باللؤلؤ لم يكن ذلك التفسير خارجاً عن كلام العرب ومعهودهم، وهذا مهم، ومما جاء في هذا المعنى قول بعضهم:

وهي بيضاءُ مثلُ لؤلؤةِ الغوّا *** صِ مُيزت مِن جوهرٍ مكنونِ

بيضاء، فهنا قال: مُيزت من جوهر مكنون، والذين يقولون: إن ذلك هو البيض ويخصون ذلك ببيض النعام يعني البيض بظاهره يكون ضارباً إلى الصفرة وإن هذا أجمل الألوان في ألوان النساء -والله أعلم- فالأجمل هو البياض الذي يضرب إلى الحمرة وليس إلى الصفرة، ويبدو أن الناس يتفاوتون بمعايير الجمال كما لا يخفى، وهؤلاء يقولون: مكنون أن النعامة تكنه بريشها تغطيه من الريح والغبار فلونه أبيض في صفرة، ويقولون: إن العرب إذا أرادت أن تصف الشيء بالحسن والنظافة قالوا: كأنه بيض النعام، ومعروف أن ريش النعام في غاية الرقة ويستعمل في التنظيف، فيقولون: بيض النعام المغطى بالريش، فيضربون به المثل، فخاطبهم القرآن بما يعهدون، بمعهود خطابهم وكانوا يستعملون هذا في أشعارهم كما يقول امرؤ القيس:

وبيضةِ خدرٍ لا يُرام خِباؤُها *** تمتعتُ من لهوٍ بها غيرَ مُعجَلِ

يعني لا يصل إليها أحد، ولا يتطلع إليها أحد، والشاعر ماجن يقول: إنه وصل إليها وتمتع بها من غير خوف، ولا يحاذر أحداً، ولم يكن ذلك على وجه الاستعجال، والحاصل أنه شبهها بالبيض في صفائها ورقتها، وهكذا إذا نظرت إلى الأقوال التي ذكرها الحافظ ابن كثير، وبعضهم يجعل تشبيهها بالبيض باعتبار أنها لم تكسر {كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ} مكنون مصون من الكسر، يعني أنهن عذارى، وابن جرير -رحمه الله- يفسرها بالبيض المعروف لكن باعتبار ما تحت القشرة وهو لم تمسه الأيدي قبل ذلك، -والله تعالى أعلم-، وهذه الأقوال التي ترجع إليها الأقوال في الآية، فهنا قال: **بياض البيض حين ينزع قشره قال: واختاره ابن جرير**، فعبارة ابن جرير أدق من هذا، ويقول عطاء الخرساني: إنه الغشاء الذي يكون بين القشرة العليا ولباب البيضة {كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ} مغطى بهذه القشرة فلم تمسه الأيدي، وصار عندنا بيض مكنون، بيض النعام

يغطي ولا يمسه ولا يصيبه شيء لا غبار ولا غيره، أو أن ذلك المراد به من حيث إنه لم يكسر البيض أو داخل البيض أو أن المراد بذلك اللؤلؤ، -والله تعالى أعلم-، والشنقيطي -رحمه الله- في قوله: {قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ} له كلام جيد في هذا المعنى، ويُحتاج إليه في هذه الأيام التي لربما تتطلع كثير من النساء إلى الخروج من منزلها، ومن خدرها تبحث عن عمل تكون فيه أجيرة، ولربما رأت أن من العيب أن تبقى -كما يعبر بعضهن- بحال من البطالة، تعتبر بقاءها في بيتها وتربية النشء، والقيام بوظائفها الأساسية أن ذلك بطالة، فتذهب بأي أجر المهم أن تخرج، وترى ذلك من الأمور التي تتزين بها أمام الآخرين، فهي تستحي إذا حضرت مجلساً وتحدثت كل واحدة عن نفسها مُعرِّفة بها أن تقول: إنها ربة منزل، فهذه مشكلة كبيرة حينما تتغير مفاهيم الناس، فهذا كلام يصلح لمثل هؤلاء ويحتاج النساء أن يطلعن عليه ويعرفن الأوصاف الكاملة.

قال العلامة الشنقيطي -رحمه الله-: "قوله تعالى: {وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ * كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ} [سورة الصافات:٤٨-٤٩].

ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة ثلاث صفات من صفات نساء أهل الجنة:

الأولى: أنهن قاصرات الطرف، وهو العَين، أي: عيونهن قاصرات على أزواجهن، لا ينظرن إلى غيرهم لشدة اقتناعهن واكتفائهن بهم.

الثانية: أنهن عِين، والعِين جمع عيناء، وهي واسعة دار العين، وهي النجلاء.

الثالثة: أن ألوانهن بيض بياضا مشربا بصفرة؛ لأن ذلك هو لون بيض النعام الذي شبههن به، ومنه قول امرئ القيس في نحو ذلك:

كبكرِ المُقاناةِ البياض بصفرةٍ *** غذاها نميرُ الماءِ غيرُ المُحلَّلِ

لأن معنى قوله: كبكر المقانات البياض بصفرة: أن لون المرأة المذكورة كلون البيضة البكر المخالط بياضها بصفرة، وهذه الصفات الثلاث المذكورة هنا جاءت موضحة في غير هذا الموضع مع غيرها من صفاتهن الجميلة، فبيّن كونهن قاصرات الطرف على أزواجهن بقوله تعالى في "ص": {وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ} [سورة ص:٥٢]، وكون المرأة قاصرة الطرف من صفاتها الجميلة، وذلك معروف في كلام العرب، ومنه قول امرئ القيس:

من القاصراتِ الطرفِ لو دب مُحْوِلٌ*** من الذرِّ فوق الإتب منها لأثّرا"[1].

كما في قول الآخر أيضاً:

لو دَبّ ذَرٌّ فوق ضاحي جلدِها *** لأبان من آثارهن حُدورُ

يعني من شدة الرقة لو دب ذر فوق ضاحي جلدها -يعني الضاحي الظاهر للشمس- لأبان من دبيبهن حدور يعني يظهر آثار خطوط أثر مشي الذر على جلدها لرقته.

قال الشنقيطي -رحمه الله-: "وَذَكَرَ كَوْنَهُنَّ عِينًا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى فِيهِنَّ: {وَحُورٌ عِينٌ} [سورة الواقعة:٢٢]، وَذَكَرَ صِفَةَ أَلْوَانِهِنَّ وَبَيَاضَهَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: {كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ} [سورة الواقعة:٢٣]، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: {كَأَنَّهُنَّ

---

١ - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٦ / ٣١٣).

الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ} [سورة الرحمن:٥٨]، وَصِفَاتُهُنَّ كَثِيرَةٌ مَعْرُوفَةٌ فِي الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ.

وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ أَثْنَى عَلَيْهِنَّ بِنَوْعَيْنِ مِنْ أَنْوَاعِ الْقَصْرِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّهُنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ، وَالطَّرْفُ الْعَيْنُ، وَهُوَ لَا يُجْمَعُ وَلَا يُثَنَّى؛ لِأَنَّ أَصْلَهُ مَصْدَرٌ، وَلَمْ يَأْتِ فِي الْقُرْآنِ إِلَّا مُفْرَدًا؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: **{لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ}** [سورة إبراهيم:٤٣]، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: **{يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ}** [سورة الشورى:٤٥]، وَمَعْنَى كَوْنِهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ هُوَ مَا قَدَّمْنَا مِنْ أَنَّهُنَّ لَا يَنْظُرْنَ إِلَى غَيْرِ أَزْوَاجِهِنَّ بِخِلَافِ نِسَاءِ الدُّنْيَا.

وَالثَّانِي مِنْ نَوْعَيِ الْقَصْرِ: كَوْنُهُنَّ مَقْصُورَاتٌ فِي خِيَامِهِنَّ، لَا يَخْرُجْنَ مِنْهَا؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى لِأَزْوَاجِ نَبِيِّهِ -صلى الله عليه وسلم-: **{وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ}** [سورة الأحزاب:٣٣]، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: **{حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ}** [سورة الرحمن:٧٢]، وَكَوْنُ الْمَرْأَةِ مَقْصُورَةً فِي بَيْتِهَا لَا تَخْرُجُ مِنْهُ مِنْ صِفَاتِهَا الْجَمِيلَةِ، وَذَلِكَ مَعْرُوفٌ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ؛ وَمِنْهُ قَوْلُهُ:

مَنْ كَانَ حَرْبًا لِلنِّسَاءِ *** فَإِنَّنِي سِلْمٌ لَهُنَّهْ
فَإِذَا عَتَرْنَ دَعَوْتَنِي *** وَإِذَا عَتَرْتُ دَعَوْتُهُنَّهْ
وَإِذَا بَرَزْنَ لِمَحْفِلٍ *** فَقِصَارُهُنَّ مِلَاحُهُنَّهْ"[٢].

فإذا اجتمعن في محفل فقصارهن ملاحهن، والملاح هن القصار، ليست قصيرة القامة، وإنما اللاتي لا يخرجن من بيوتهن، هذه الملاحة الحقيقية وليست الأجيرة، يهجو الأخطل النصراني وكان مما قال:

والتّغلبيّون بئس الفحلُ فحلُهم *** فحلاً وأمّهم زلّاء منطيقُ

يعني أن كونها تضطر لفقرهم أن تخرج فتعمل ويصيبها شيء من الهزال فتكون زلاء يعني أنها ليس على أوراكها شيء، وإنما تستحسن العرب أن تكون المرأة ضخمة العجيزة، فإذا كانت المرأة زلاء يعني ليست أوراكها كذلك فإنها تربط خرقاً تُكبر عجيزتها بها فتبدو جميلة، فهذا يهجوهم:

والتّغلبيّون بئس الفحلُ فحلُهم *** فحلاً وأمّهم زَلاء منطيقُ

تربط النطاق لتضع الخرق على عجيزتها لتغطي هذا القبح.

وقال الشنقيطي -رحمه الله-: "فَقَوْلُهُ: قِصَارُهُنَّ، يَعْنِي: الْمَقْصُورَاتِ مِنْهُنَّ فِي بُيُوتِهِنَّ اللَّاتِي لَا يَخْرُجْنَ إِلَّا نَادِرًا، كَمَا أَوْضَحَ ذَلِكَ كُثَيِّرُ عَزَّةَ فِي قَوْلِهِ:

وَأَنْتِ الَّتِي حَبَّبْتِ كُلَّ قَصِيرَةٍ *** إِلَيَّ وَمَا تَدْرِي بِذَاكِ الْقَصَائِرُ
عَنَيْتُ قَصِيرَاتِ الْحِجَالِ وَلَمْ أُرِدْ *** قِصَارَ الْخُطَا شَرُّ النِّسَاءِ الْبَحَاتِرُ

وَالْحِجَالُ: جَمْعُ حَجْلَةٍ، وَهِيَ الْبَيْتُ الَّذِي يُزَيَّنُ لِلْعَرُوسِ، فَمَعْنَى قَصِيرَاتِ الْحِجَالِ: الْمَقْصُورَاتِ فِي حِجَالِهِنَّ، وَذَكَرَ بَعْضُهُمْ أَنْ رَجُلًا سَمِعَ آخَرَ، قَالَ: لَقَدْ أَجَادَ الْأَعْشَى فِي قَوْلِهِ:

غَرَّاءُ فَرْعَاءُ مَصْقُولٌ عَوَارِضُهَا *** تَمْشِي الْهُوَيْنَى كَمَا يَمْشِي الْوَجِى الْوَحِلُ
كَأَنَّ مِشْيَتَهَا مِنْ بَيْتِ جَارَتِهَا **** مَرُّ السَّحَابَةِ لَا رَيْثٌ وَلَا عَجَلُ

---

٢ - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٦/٣١٣-٣١٤).

لَيْسَتْ كَمَنْ يَكْرَهُ الْجِيرَانُ طَلْعَتَهَا *** وَلَا تَرَاهَا لِسِرِّ الْجَارِ تَخْتَتِلُ

فَقَالَ لَهُ: قَاتَلَكَ اللَّهُ، تَسْتَحْسِنُ غَيْرَ الْحَسَنِ هَذِهِ الْمَوْصُوفَةُ خَرَّاجَةٌ وَلَّاجَةٌ، وَالْخَرَّاجَةُ الْوَلَّاجَةُ لَا خَيْرَ فِيهَا وَلَا مَلَاحَةَ لَهَا، فَهَلَّا قَالَ كَمَا قَالَ أَبُو قَيْسِ بْنُ الْأَسْلَتِ:

وَتَكْسَلُ عَنْ جَارَاتِهَا فَيَزُرْنَهَا *** وَتَعْتَلُّ مِنْ إِتْيَانِهِنَّ فَتُعْذَرُ"[٣].

يعني لا تحب الخروج أبداً حتى إلى جاراتها، يثقل عليها الخروج.

والنساء البحاتر يعني القصيرات.

{فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ * قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ * يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ * أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ * قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ * فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ * قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ * وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ * أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ * إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ} [سورة الصافات:٥٠-٦١].

يخبر تعالى عن أهل الجنة أنه أقبل بعضهم على بعض يتساءلون، أي: عن أحوالهم، وكيف كانوا في الدنيا، وماذا كانوا يعانون فيها؟ وذلك من حديثهم على شرابهم، واجتماعهم في تنادمهم وعشرتهم في مجالسهم، وهم جلوس على السرر، والخدم بين أيديهم يسعون ويجيئون بكل خير عظيم، من مآكل ومشارب وملابس، وغير ذلك مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، {قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ} قال مجاهد: يعني شيطانا.

وقال العوفي، عن ابن عباس: هو الرجل المشرك، يكون له صاحب من أهل الإيمان في الدنيا.

يعني من البشر قرين صاحب، وبعضهم يقول: هذا القرين شيطان، والأقرب -والله تعالى أعلم- والذي عليه عامة المفسرين أن المقصود به قرين من الإنس.

قوله: {يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ} أي: أأنت تصدق بالبعث والنشور والحساب والجزاء؟! يعني: يقول ذلك على وجه التعجب والتكذيب والاستبعاد، والكفر والعناد، {أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ} قال مجاهد، والسدي: لمحاسبون؟ وقال ابن عباس، ومحمد بن كعب القرظي: لمجزيون بأعمالنا؟.

وكلاهما صحيح.

قال: {قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ} أي: مُشرِفون، يقول المؤمن لأصحابه وجلسائه من أهل الجنة، {فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ} قال ابن عباس، وسعيد بن جبير، وخليد العصري وقتادة، والسدي، وعطاء الخرساني يعني في وسط الجحيم.

وقال الحسن البصري: في وسط الجحيم كأنه شهاب يتقد.

{قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ} يقول المؤمن مخاطبا للكافر: والله إن كدتَ لتهلكني لو أطعتك، {وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ} أي: ولولا فضل الله عليّ لكنت مثلك في سواء الجحيم حيث أنت، محضَر معك في العذاب، ولكنه تفضل عليّ ورحمني فهداني للإيمان، وأرشدني إلى توحيده {وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا

---

٣ - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، للشنقيطي (٦/٣١٤).

اللَّهُ} [سورة الأعراف:٤٣].

وقوله: {أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ * إِلا مَوْتَتَنَا الأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ} هذا من كلام المؤمن مغبطا نفسه بما أعطاه الله من الخلد في الجنة والإقامة في دار الكرامة، لا موت فيها ولا عذاب؛ ولهذا قال: {إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}.

وقال الحسن البصري: علموا أن كل نعيم فإن الموت يقطعه، فقالوا: {أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ * إِلا مَوْتَتَنَا الأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ}، قيل: لا، قالوا: {إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}.

وقوله: {لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ} قال قتادة: هذا من كلام أهل الجنة.

وقال ابن جرير: هو من كلام الله تعالى، ومعناه: لمثل هذا النعيم وهذا الفوز فليعمل العاملون في الدنيا، ليصيروا إليه في الآخرة.

هذا يحتمل أن يكون من كلام الله، وأن يكون من بقية كلام أهل الإيمان، وبعضهم يقول: هذا من كلام الملائكة، ولا دليل على هذا، -والله تعالى أعلم-، لكن باعتبار أنه ليس من كلامهم أي ليس من كلام أهل الإيمان وأنه من كلام الله أو من كلام الملائكة يكون هذا من قبيل الموصول لفظاً المفصول معنى.

وقد ذكروا قصة رجلين كانا شريكين في بني إسرائيل، تدخل في ضمن عموم هذه الآية الكريمة.

روى ابن جرير عن فرات بن ثعلبة البهراني في قوله: {إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ} قال: إن رجلين كانا شريكين، فاجتمع لهما ثمانية آلاف دينار، وكان أحدهما له حرفة، والآخر ليس له حرفة، فقال الذي له حرفة للآخر: ليس عندك حرفة، ما أراني إلا مفارقك ومقاسمك، فقاسمه وفارقه، ثم إن الرجل اشترى دارًا بألف دينار كانت لملك مات، فدعا صاحبه فأراه فقال: كيف ترى هذه الدار ابتعتها بألف دينار؟، قال: ما أحسنها! فلما خرج قال: اللهم إن صاحبي ابتاع هذه الدار بألف دينار، وإني أسألك دارا من دور الجنة، فتصدق بألف دينار، ثم مكث ما شاء الله أن يمكث، ثم إنه تزوج بامرأة بألف دينار، فدعاه وصنع له طعاما، فلما أتاه قال: إني تزوجت امرأة بألف دينار، قال: ما أحسن هذا! فلما انصرف قال: يا رب، إن صاحبي تزوج امرأة بألف دينار، وإني أسألك امرأة من الحور العين، فتصدق بألف دينار، ثم إنه مكث ما شاء الله أن يمكث، ثم اشترى بستانين بألفي دينار، ثم دعاه فأراه فقال: إني ابتعت هذين البستانين، فقال: ما أحسن هذا! فلما خرج قال: يا رب، إن صاحبي قد اشترى بستانين بألفي دينار، وأنا أسألك بستانين في الجنة، فتصدق بألفي دينار، ثم إن الملَك أتاهما فتوفاهما، ثم انطلق بهذا المتصدق، فأدخله دارا تعجبه، وإذا امرأة تطلع يضيء ما تحتها من حسنها، ثم أدخله بستانين وشيئا الله به عليم، فقال عند ذلك: ما أشبه هذا برجل كان من أمره كذا وكذا، قال: فإنه ذاك، ولك هذا المنزل والبستانان والمرأة، قال: فإنه كان لي صاحب يقول: أئنك لمن المصدقين؟ قيل له: فإنه في الجحيم، قال: هل أنتم مطلعون؟ فاطلع فرآه في سواء الجحيم، فقال عند ذلك: {تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ. وَلَوْلا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ} الآيات.

هذا من الأخبار الإسرائيلية وفيه عبرة، وهو داخل ضمن قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((حدثوا عن

بني إسرائيل ولا حرج))[٤]، ومثل هذا ليس فيه ما يخالف ما ورد في شرعنا.

{أَذَلِكَ خَيْرٌ نزلا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ * إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ * إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ * طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ * فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ * ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ * ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ * إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ * فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ} [سورة الصافات:٦٢-٧٠].

يقول الله تعالى: أهذا الذي ذكره من نعيم الجنة وما فيها من مآكل ومشارب ومناكح وغير ذلك من الملاذ خيرٌ ضيافة وعطاء {أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ} أي: التي في جهنم؟.

المراد بذلك جنس شجر، يقال له: الزقوم، كقوله تعالى: {وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلآكِلِينَ} [سورة المؤمنون:٢٠]، يعني الزيتونة، ويؤيد ذلك قوله تعالى: {ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ * لآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ} [سورة الواقعة:٥١-٥٢].

{أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ} يعني معناها أنها ليست شجرة واحدة وإنما شجر كما تدل عليه الآية الأخرى {لآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ}، هذا معنى كلام الحافظ ابن كثير -رحمه الله- وهذا في غاية الأهمية، والمفترض أنه لا يحذف، فما ذُكر هنا في المختصر يوهم أن الحافظ ابن كثير اختار أنه شجر، أنه جنس، وإنما ذكره في الأصل احتمالاً، يحتمل أن تكون شجرة واحدة، ويحتمل أن يكون جنساً من الشجر، يقال له: الزقوم، فالحافظ -رحمه الله- لم يرجح هذا القول بأنه جنس من الشجر، فطريقة الاختصار هذه هنا غير صحيحة، و{الزَّقُّومِ} هل هو شيء معهود أو غير معهود؟ أو هذا اللفظ مشتق مثلاً من التزقم وهو التكلف في أكله وابتلاعه فيبتلعه على جهد، يُكره على ذلك؛ لسوء طعمه وطبيعته، فيكرهون على تناوله؟، وهل هذا الشجر معروف أيضاً أو لا؟ يعني هل هو معروف في الدنيا؟ بعضهم يقول: نعم! الشجر معروف في الدنيا من أخبث الشجر وأسوئه، وبعضهم يقول: إن {الزَّقُّومِ} يطلق على كل نبات قاتل، وبعضهم يقول: غير معهود في الدنيا، لا يعرف، وإنما هو شجر خاص أو شجرة خاصة بالنار.

وقوله: {إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ}، قال قتادة: ذكرت شجرة الزقوم، فافتتن بها أهل الضلالة، وقالوا: صاحبكم ينبئكم أن في النار شجرة، والنار تأكل الشجر، فأنزل الله -عز وجل-: {إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ} غُذيت من النار، ومنها خلقت.

وقال مجاهد: {إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ} قال أبو جهل -لعنه الله-: إنما الزقوم التمر والزبد أتزقمه.

قلت: ومعنى الآية: إنما أخبرناك يا محمد بشجرة الزقوم اختبارا تختبر به الناس، من يصدق منهم ممن يكذب، كقوله تعالى: {وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلا طُغْيَانًا كَبِيرًا} [سورة الإسراء:٦٠].

مع أنه يحتمل أن يكون قوله: {إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ} الفتنة تطلق أيضاً على العذاب، فالفتنة تقال للاختبار، وتقال لنتيجته، والحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا فسرها بالاختبار والامتحان، ويحتمل أن يكون ذلك بمعنى العذاب فتكون قد أطلقت على نتيجة الاختبار والامتحان، {فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ} يعني يعذبون فيها

---

٤ - رواه البخاري، كتاب الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، برقم (٣٢٧٤).

بالأكل منها، هذا احتمال، وظاهر السياق -والله تعالى أعلم- يرجح ما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله.

وقوله: {إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ} أي: أصل منبتها في قرار النار، {طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ} تبشيع لها وتكريه لذكرها.

وإنما شبهها برءوس الشياطين وإن لم تكن معروفة عند المخاطبين؛ لأنه قد استقر في النفوس أن الشياطين قبيحة المنظر.

هذا صحيح، والعرب وغير العرب يشبهون الشيء الذي يكون غاية في القبح برءوس الشياطين مع أنهم ما رأوهم، كما أنهم يشبهون أو يمثلون الشيء الذي يكون في غاية الكمال والجمال بالملَك، كما قال النسوة لما رأين يوسف -صلى الله عليه وسلم-: {مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ} [سورة يوسف:٣١]، مع أنهن ما رأينا الملَك، فالعرب تشبه الشيء القبيح جداً بالشياطين، وبعضهم يقول: رءوس الشياطين المقصود بها هنا نوع من الحيات لها رءوس وأعراف برءوسها هي في غاية القبح، وهذا يقول به بعض أصحاب المعاني كالزجاج والفراء، {كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ}، وبعضهم يقول: هذا نبت معروف قبيح في اليمن، والأول هو الأرجح أن {رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ} الشياطين المعروفة، والقرآن لا يفسر بغير الظاهر المتبادر إلا بدليل يجب الرجوع إليه، لكن فيما يتصل بالنبات الذي يكون في اليمن من أراد أن يرى عجائب النباتات في الدنيا فذلك موجود في اليمن في ناحية يقال لها: سقطرة، فيها نباتات عجيبة جداً إذا نظرت إليها تعجب أن هذا يكون من جنس النبات، نباتات نادرة في العالم .

وقوله: {فَإِنَّهُمْ لآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ}، ذكر تعالى أنهم يأكلون من هذه الشجرة التي لا أبشع منها، ولا أقبح من منظرها، مع ما هي عليه من سوء الطعم والريح والطبع، فإنهم ليضطرون إلى الأكل منها، لأنهم لا يجدون إلا إياها، وما في معناها، كما قال تعالى: {لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلا مِنْ ضَرِيعٍ * لا يُسْمِنُ وَلا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ} [الغاشية:٦-٧].

وقوله تعالى: {ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ} قال ابن عباس: يعني شُرب الحميم على الزقوم.

وقال في رواية عنه: {شَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ} مزجا من حميم.

وقال غيره: يعني يمزج لهم الحميم بصديد وغسّاق، مما يسيل من فروجهم وعيونهم.

وروى ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال: إذا جاع أهل النار استغاثوا بشجرة الزقوم، فأكلوا منها فاختلست جلود وجوههم، فلو أن مارا يمر بهم يعرفهم لعرف وجوههم فيها، ثم يُصب عليهم العطش فيستغيثون فيغاثون بماء كالمهل -وهو الذي قد انتهى حره- فإذا أدنوه من أفواههم اشتوى من حره لحوم وجوههم التي قد سقطت عنها الجلود، ويصهر ما في بطونهم، فيمشون تسيل أمعاؤهم وتتساقط جلودهم، ثم يضربون بمقامع من حديد، فيسقط كل عضو على حياله، يدعون بالثبور.

وقوله: {ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لإِلَى الْجَحِيمِ} أي: ثم إن مردهم بعد هذا الفصل لإلى نار تتأجج، وجحيم تتوقد، وسعير تتوهج، فتارة في هذا وتارة في هذا، كما قال تعالى: {يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ} [سورة الرحمن:٤٤]، هكذا تلا قتادة هذه الآية عند هذه الآية، وهو تفسير حسن قوي.

وقال السدي في قراءة عبد الله: "ثم إن مقيلهم لإلى الجحيم" وكان عبد الله يقول: والذي نفسي بيده لا

ينتصف النهار يوم القيامة حتى يَقيل أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار، ثم قرأ: {أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلا} [سورة الفرقان:٢٤].

في قوله -تبارك وتعالى-: {ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لإِلَى الْجَحِيمِ} جاء بثم التي تدل على التراخي، ومن معانيها الترتيب وذلك ليس بلازم، فهنا {ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لإِلَى الْجَحِيمِ} بهذا الاعتبار بعضهم يقول: يُوردون لشربه -وهو خارج عن النار- ثم يرجعون إليها، {ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لإِلَى الْجَحِيمِ} يوردون إلى هذا الحميم خارج النار فيشربون منه ثم يرجعون إلى النار، وبعضهم يقول: هذا قبل دخول النار إنما هو نزلهم، ثم بعد ذلك يصيرون إلى النار فيكون لهم هذا الحميم، والأكل من هذه الشجرة -نزلاً- يقدم لهم قبل دخول النار -أعاذنا الله وإياكم ووالدينا وإخواننا المسلمين منها-، وبعضهم يقول: {ثُمَّ} هذه بمعنى الواو فهي لا تدل على هذا الموضع، لا تدل على ما قد يفهم من ترتيب ذلك، أو حتى التراخي وإنما هي بمعنى الواو، وهذا يقول به أبو عبيدة، يعني هو يذكر أوصافاً وأموراً تقع لهم، {ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ} كأنه يقول: وإن مرجعهم لإلى الجحيم، وعلى هذا {ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لإِلَى الْجَحِيمِ} يكون بمعنى أنهم يحصل لهم هذا وهذا وهذا في النار -والله تعالى أعلم-، لكن في قوله -تبارك وتعالى-: {يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ} والآيات التي ورد فيها ذكر الحميم كل ذلك إنما يكون في النار، لكن الذي حمل هؤلاء على القول بأنه خارج هنا في هذا المقام قوله -تبارك وتعالى-: {ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لإِلَى الْجَحِيمِ}.

وقوله: {إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ} أي: إنما جازيناهم بذلك لأنهم وجدوا آباءهم على الضلالة فاتبعوهم فيها بمجرد ذلك، من غير دليل ولا برهان؛ ولهذا قال: {فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ} قال مجاهد: شبيهة بالهرولة، وقال سعيد بن جبير: يسفهون.

{يُهْرَعُونَ} بمعنى يسرعون، وهنا قال: **شبيهة بالهرولة** يعني هذه المشية شبيهة بالهرولة، وبعضهم كالفراء يقول: هي مشية فيها شيء من رعدة، يمشي ويرتعد، يقال: يهرع يعني فيه شيء من الارتعاش أو نحو ذلك، وهي تدل على إسراع وانزعاج في هذا المشي، فليس كل إسراع يقال له ذلك، جاءوا {يُهْرَعُونَ} يعني يأتون بإسراع وانزعاج، والله تعالى أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الصافات من الآية (٧١) إلى الآية (١١٣)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله أجمعين، وبعد.

اللهم اغفر لنا ولشيخنا والحاضرين، يقول الإمام الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في قوله: {وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الأوَّلِينَ * وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ * فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ * إِلا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ} [سورة الصافات: ٧١-٧٤].

يخبر تعالى عن الأمم الماضية أن أكثرهم كانوا ضالين يجعلون مع الله آلهة أخرى، وذكر تعالى أنه أرسل فيهم منذرين، ينذرون بأس الله، ويحذرونهم سطوته ونقمته، ممن كفر به وعبد غيره، وأنهم تمادوا على مخالفة رسلهم وتكذيبهم، فأهلك المكذبين ودمرهم، ونجى المؤمنين ونصرهم وظفّرهم، ولهذا قال: {فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ * إِلا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ * وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ * وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ * وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ * وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ * سَلامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ * إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ} [سورة الصافات: ٧٥-٨٢].

لما ذكر تعالى عن أكثر الأولين أنهم ضلوا عن سبيل النجاة، شرع يبين ذلك مفصلا فذكر نوحا -عليه السلام-، وما لقي من قومه من التكذيب، وأنه لم يؤمن منهم إلا القليل مع طول المدة، لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما، فلما طال عليه ذلك واشتد عليه تكذيبهم، وكلما دعاهم ازدادوا نفرة، فدعا ربه أني مغلوب فانتصر، فغضب الله لغضبه عليهم؛ ولهذا قال: {وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ} أي: فلنعم المجيبون له، {وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ}، وهو التكذيب والأذى، {وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ} قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس يقول: لم تبق إلا ذرية نوح -عليه السلام.

وقال سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة في قوله: {وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ} قال: الناس كلهم من ذرية نوح -عليه السلام.

وقد روى الترمذي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن سمرة، عن النبي -صلى الله عليه وسلم- في قوله: {وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ} قال: ((سام، وحام ويافث))[١].

وروى الإمام أحمد عن سمرة؛ أن نبي الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((سام أبو العرب، وحام أبو الحبش، ويافث أبو الروم))[٢].

---

١ - رواه الترمذي، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ومن سورة الصافات، برقم (٣٢٣٠)، وابن جرير الطبري في تفسيره (٥٦٠/١٩).

٢ - رواه الإمام أحمد في المسند، برقم (٢٠١٠٠)، وقال محققوه: إسناده ضعيف.

ورواه الترمذي.

والمراد بالروم هاهنا: هم الروم الأُوَل، وهم اليونان المنتسبون إلى رومي بن ليطي بن يونان بن يافث بن نوح، -عليه السلام.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى- هنا {وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ} اللام هنا {وَلَقَدْ نَادَانَا فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ} هي الموطئة للقسم، وقوله -تبارك وتعالى-: {وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ} ونقل هنا عن ابن عباس -رضي الله عنهما- وغيره أنه لم يبق إلا ذرية نوح -عليه الصلاة والسلام-، وهذا إما أن يكون باعتبار ما جاء في بعض المرويات التي ترجع إلى بني إسرائيل أن الذين آمنوا معه هؤلاء القليل الذين قال الله -تبارك وتعالى- فيهم: {وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ} [سورة هود:٤٠] وأن هؤلاء هم أبناؤه -سوى الابن الذي غرق- وأزواج بناته فكانت الذرية بهذا الاعتبار من هؤلاء، أنهم هم الذين ركبوا معه في السفينة وأنجاهم الله -تبارك وتعالى- فتناسل الناس منهم، وبهذا يكون ذلك مع قوله -تبارك وتعالى-: {ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ} [سورة الإسراء:٣]، ما قال ذرية نوح: {ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ} فهؤلاء ركبوا معه، والله أضاف الذرية إليه: {ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ}، {قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ} [سورة هود:٤٨] هؤلاء يأتون بعد ذلك، {أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ} فيكون بهذا الاعتبار بناء على هذه المرويات، ولا يمكن أن يعتمد على المرويات الإسرائيلية أن الناس تناسلوا من نوح -صلى الله عليه وسلم- بهذا الاعتبار، باعتبار الذين ركبوا معه هم أبناؤه وأزواج بناته، ومعلوم أن أولاد البنات من جملة الذرية كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم- في الحسن -رضي الله عنه-: ((إن ابني هذا سيد))[٣]، وهو ولد بنت، و لا عبرة بقول الشاعر:

بنُونا بنو أبنائِنا وبناتُنا *** بنوهنّ أبناءُ الرجالِ الأباعدِ

لا عبرة بهذا، والصحيح أن أولاد البنات من الذرية، وبعض أهل العلم يقول غير ذلك، يعني منهم من يقول في قول الله -تبارك وتعالى-: {وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ}: يمكن أن يكون ذلك باعتبار أن الذين بقوا من النسل هم من كان تناسل من نوح -عليه الصلاة والسلام- بعد ذلك، وأن الباقين الذين ركبوا معه قد انقطعت ذريتهم، لم يكن لهم التناسل الممتد الذي جاء بعده أمم وأقوام وما شابه ذلك، و بعضهم يقول: إن ظواهر الآيات الأخرى تدل على وجود ذرية ممن كانوا مع نوح -صلى الله عليه وسلم- غير ذرية نوح -عليه الصلاة والسلام-، فيحتجون بمثل قوله: {ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ} وهذا ليس بصريح في ذلك، ويمكن حتى وإن كان معه غير أزواج بناته وغير أبنائه الذكور أن يكون الذين بقوا ممن تناسلوا بعد ذلك هم ذرية نوح -صلى الله عليه وسلم- وأولاد نوح، وإن ركب معهم في السفينة غيرهم، والذين ركبوا في السفينة الروايات مختلفة في عددهم بعضهم يوصلهم إلى ثمانين، وبعضهم إلى غير هذا أنهم قلة، قال: **الناس كلهم من ذرية نوح -عليه السلام-** وهذا واضح لقوله -تبارك وتعالى-: {وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ}، ولهذا يقال لنوح

---

٣ - رواه البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب الحسن والحسين -رضي الله عنهما-، برقم (٣٥٣٦).

-صلي الله عليه وسلم-: إنه آدم الصغير؛ لأنه أبو البشر فكل الناس الذين على ظاهر الأرض هم من ذرية نوح -صلى الله عليه وسلم- كما أنهم من ذرية آدم -عليه الصلاة والسلام-، أما هذه الروايات هنا قال: **وقد رواه الترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم عن سمرة -رضي الله عنهم- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال:** {وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ} **قال: سام وحام ويافث،** فإنها لا تصح من رواية الحسن عن سمرة، وهي معنعنة لا تصح، وكذلك التي بعدها، **روي الإمام أحمد عن سمرة -رضي الله عنه- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال:** ((سام أبو العرب، وحام أبو الحبش، ويافث أبو الروم)) **رواه الترمذي** لا تصح، وتقسيم الأمم وإرجاع ذلك إلى أولاد نوح تفصيلاً ليس ذلك محل اتفاق، وتجد في الروايات اختلافات، لكن لا يصح في ذلك شيء عن النبي -صلى الله عليه وسلم-، فتجد أن بعضهم نسب البعض إلى أحد أولاد نوح، وبعضهم يرجعه إلى آخر، وجاء عن سعيد بن المسيب -رحمه الله- أن سام أب للعرب والفرس والروم واليهود والنصارى، وهذا غير منضبط، والنصارى حينما يقال: نصارى فإن ذلك لا يعني قوماً لهم عرق معين، فمعلوم أن عيسى -صلى الله عليه وسلم- أرسل إلى بني إسرائيل، والنصارى واليهود شيء واحد، فاليهود هم بنو إسرائيل وعيسى -صلى الله عليه وسلم- أرسل إليهم، {فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ} [سورة الصف:١٤] كما أنه أرسل -عليه الصلاة والسلام- للكفار من اليونان، وهؤلاء غير بني إسرائيل، وقد آمن به أقوام غير هؤلاء منذ قديم الدهر، ونحن نعرف أن المسلمين هاجروا إلى الحبشة، وكان فيها النصارى وهم أفارقة ليسوا من عرق اليونان ولا من بني إسرائيل، وهذا معروف، كما وُجد النصارى في نواحٍ مختلفة في بلاد العرب وغيرها، كان بنو تغلب في الجاهلية على دين النصارى في الغالب إلى غير هؤلاء، فهذه الرواية عن سعيد بن المسيب تعزو هؤلاء إلى سام، وأن حام هو أبو السودان من المشرق إلى المغرب السند والهند، وأهل النوبة والزنوج والحبشة والقبط والبربر وغير هؤلاء كل هؤلاء يرجعون إلى حام، ولكن الهند لا علاقة لها بهذا، فالهند كما يقول من زارها من الرحالة مثل ابن بطوطة لما وصف حال الهند وما رأى فيها وشاهد من الناس وصف الناس فذكر أنه وجد قوماً يعني في صفتهم كالسودان في لون البشرة، وذكر من ذكائهم وفطنتهم ونباهتهم، فهم يشبهون الحبشة من جهة اللون، وأما يافث فيقولون: الصقالبة والترك والخَزَر ويأجوج ومأجوج وغير هؤلاء، -والله أعلم-، ولا يثبت في هذا شيء.

وقوله: {وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ}**، قال ابن عباس: يُذكر بخير.**

يعني الذكر الجميل، والثناء عليه بالخير.

وقال مجاهد: يعني لسان صدق للأنبياء كلهم.

هذا لا يختص بنوح -صلى الله عليه وسلم- وإنما لجميع الأنبياء جعل الله لهم لسان صدق، ويُذكرون كلهم بخير.

وقال قتادة والسدي: أبقى الله عليه الثناء الحسن في الآخرين، قال الضحاك: السلام والثناء الحسن.

وقوله تعالى: {سَلامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ} **مفسر لما أبقى عليه من الذكر الجميل والثناء الحسن أنه يُسلَّم عليه في جميع الطوائف والأمم.**

{وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ * سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ} الآن تَرَكَ عليه {سَلامٌ} لكنها جاءت مرفوعة

ففهم منها بعضهم أنها جملة جديدة وليست مفسرة لما قبلها {وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ} الذكر الجميل والثناء الحسن، ثم قال {سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ} أي: من الله، وهذه جملة جديدة، ولكن الحافظ ابن القيم -رحمه الله- أطال في الرد على هذا وأن ذلك لا يصح، وأن قوله -تبارك وتعالى- {وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ} يكون مبهماً، فلابد أن يكون ثمّة ما يفسره ويوضحه، وأن الكلام لا معنى له {وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ} إذا لم يكن ذلك تفسيراً له {سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ} والأقوال التي ذكروها هنا نقلت عن السلف من أنه الذكر الجميل والثناء الحسن وإلى آخره، قال: كل هذه المعاني متلازمة ولا حاجة للترجيح بينها، فحينما يكون ذلك تفسيراً {وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ * سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ} فإن هذا السلام متضمن للثناء الحسن والذكر الجميل والتسليم عليه، وكل هذه المعاني داخلة فيه، فهؤلاء الذين يسلمون عليه، يقول: ليس ذلك بسلام من الله؛ لأن السلام من الله لا يقيد بهذا، ما تقول: اللهم سلم على نوح في العالمين، وإنما يكون مطلقاً لا يكون مقيداً، فلا يقال: اللهم صل وسلم على نبينا محمد في العالمين مثلاً، هذا كلام الحافظ ابن القيم، وهنا قوله: {سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ} هو تفسير لما قبله، -والله تعالى أعلم-، وجاء مرفوعاً يمكن أن يكون ذلك على سبيل الحكاية، أنه محكي {سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ} جاء محكياً فجاء بالرفع، ويمكن أن يكون مقولاً لقول مقدر -والله تعالى أعلم-، وكون هذه الجملة {سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ} متعلقة بما قبلها وتفسير لها هذا هو الأقرب، -والله أعلم-، يعني تَركَ عليه ذلك أن الأمم تسلم عليه، وتثني عليه.

قوله: {إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ} أي: هكذا نجزي من أحسن من العباد في طاعة الله، نجعل له لسانَ صدْق يذكر به بعده بحسب مرتبته في ذلك.

ثم قال: {إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ} أي المصدقين الموحدين الموقنين.

قوله -تبارك وتعالى-: {إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ} هذا عام، بعدما ذكر نوحاً -صلى الله عليه وسلم- عم بالحكم بعده إن كان من أهل الإحسان فإنه يعامله بهذا فمما ذكر بعده {سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ}، فيكون له من الذكر الحكيم والمحبة في قلوب الخلق وما أشبه ذلك جزاء على إحسانه {إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ}.

ثم قال: {إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ} أي المصدقين الموحدين الموقنين، {ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ} أي: أهلكناهم، فلم تبْق منهم عين تطرف، ولا ذكر لهم ولا عين ولا أثر، ولا يعرفون إلا بهذه الصفة القبيحة.

{وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ * إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ * أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ * فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ} [سورة الصافات:٨٣-٨٧].

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: {وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ} يقول: من أهل دينه، وقال مجاهد: على منهاجه وسنته.

الضمير في قوله: {وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ} يرجع إلى نوح -صلى الله عليه وسلم-، لأنه هو المحدَّث عنه، مع أن بعضهم يقول: يرجع إلى محمد -صلى الله عليه وسلم-، {وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ} من شيعته: من شيعة النبي -صلى الله عليه وسلم.

{إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ} قال ابن عباس: يعني شهادة أن لا إله إلا الله.

وروى ابن أبي حاتم عن عَوْف: قلت لمحمد بن سِيرين: ما القلب السليم؟ قال: يعلم أن الله حق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور.

وقال الحسن: سليم من الشرك، وقال عروة: لا يكون لعاناً.

هذه الأقوال الآن هل بينها اختلاف: لا يكون لعاناً، سليم من الشرك، سليم من كل ما يضاد ذلك، يعلم أن الله حق إلى آخر ما قيل، هل هذه الأقوال بينها اختلاف؟ هل نحتاج أن نرجح؟ الجواب: لا يحتاج هذا إلى ترجيح، سليم: ليس بلعان، والسلف يفسرون بعبارة تدل على المراد تارة بالمثال، وتارة بجزء المعنى، وتارة بعبارة مقاربة وما إلى ذلك، فهنا كيف نستطيع أن نفهم هذه الأقوال؟ نفهمها كما يذكر شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- وكما يذكر ابن القيم في معنى القلب السليم، {إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ} [سورة الشعراء:٨٩] ففسروا القلب السليم قالوا: السالم من كل آفة، السالم من الآفات التي أعظمها الإشراك بالله -تبارك وتعالى-، وهو سالم أيضاً من الغل الحقد والحسد على أهل الإيمان، {وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا} [سورة الحشر:١٠] والقلب المشوش في هذه الأمور ليس بقلب سليم، {إِذْ جَاء رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ} سليم من كل آفة، وما عدا ذلك فهو قلب مريض إما بالشرك، فالكافر قلبه ميت، والمشرك قلبه ميت، وإما بالنفاق فالمنافق النفاق الأكبر قلبه ميت، والمنافق الذي نفاقه دون ذلك في قلبه من المرض بحسب ما في قلبه من النفاق، وهكذا سائر الأدواء، قال الله -تبارك وتعالى-: {فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ} [سورة الأحزاب:٣٢]، فالقلب يمرض، والمريض لا يكون سليماً، فهذا الذي فيه ميل محرم للنساء، وتعلقٌ بالصور ليس بقلب سليم، وهكذا القلب المريض بالأحقاد وما إلى ذلك ليس بقلب سليم، تقول: فلان قلبه سليم على إخوانه المسلمين يعني أن قلبه نقي أبيض لا يحمل على أحد، ولا يحقد على أحد، فكل هذا داخلٌ فيه.

وقوله: {إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ} أنكر عليهم عبادة الأصنام والأنداد، ولهذا قال: {أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ * فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ} قال قتادة: يعني ما ظنكم به أنه فاعل بكم إذا لاقيتموه وقد عبدتم غيره؟!

هنا {إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ * أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ} قوله: {أَئِفْكًا} بعضهم يعربه أنه مفعول لأجله وأن {آلِهَةً} مفعول لتريدون، يعني تريدون {آلِهَةً} من دون الله للإفك، يكون "إفكاً" مفعولاً لأجله مقدماً، وبعضهم يقول: إن إفكاً مفعول لتريدون، وآلهة بدل {أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ} يعني تريدون إفكاً ما وهذا الإفك آلهة فيكون بدلاً منه {أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ * فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ} **قال قتادة: يعني ما ظنكم أنه فاعل بكم إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره،** هذا الذي عليه عامة المفسرين وهو اختيار كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله-، {فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ} يعني ما ظنكم أنه فاعل بكم، وبعضهم يقول: المعنى {فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ} أيّ شيء توهمتموه بالله حتى عبدتم معه غيره يعني من النقص؟ توهمتم أنه بحاجة إلى أعوان بحاجة إلى وسطاء وما أشبه ذلك ما هذا الظن السيئ الذي أوقعكم بهذا الإشراك والكفر بالله -تبارك وتعالى-؟، والحافظ ابن القيم -رحمه الله- إذا تتبعت كلامه في أكثر من موضع في هذه القضية في كتبه تجد أنه في هذا الكلام جمع بين القولين، وإن لم يذكر الأقوال، إنما يُعرف ذلك بمعرفة الأقوال في كتب التفسير، فمن قرأ كلام الحافظ ابن القيم لا يتفطن لهذا لأول وهلة، وإذا كان يعرف الأقوال

وجد أنه عبر عن ذلك بعبارة -بجميع المواضع- تجمع بين هذه الأقوال، فابن القيم -رحمه الله- هنا يقول: {أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ * فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ} إذا لاقيتموه وقد أشركتم به أنه فاعل بكم؟، {فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ} حيث أشركتم به غيره هل كان ذلك باعتبار أنكم تتوهمون العجز والضعف فيه فهو بحاجة إلى شركاء أو أنه لا تبلغه حاجاتكم فيحتاج إلى من يبلغه ذلك، أو أنه مثل المخلوقين يحتاج إلى وسطاء فعبدتم هؤلاء ليقربوكم إلى الله زلفى ما ظنكم برب العالمين، ما هذه الظنون؟ كل من أشرك بالله -تبارك وتعالى- فقد أساء الظن به، فالحافظ ابن القيم يجمع هذه جميعاً، ما ظنكم أنه فاعلٌ بكم؟، وما هذه الظنون الكاذبة السيئة التي أوقعتكم في هذا الإشراك؟، لكن عامة المفسرين على الأول {فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ} أنه فاعلٌ بكم؟ مع أن ظاهر الآية يحتمل هذا وهذا، وإنما جرى ابن القيم -رحمه الله- على ما سبق باعتبار أن الآية إذا كانت تحتمل معنيين فأكثر ولا يوجد ما يمنع من حملها على هذه المعاني فلا إشكال من حملها على الجميع.

{فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ * فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ * فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ * فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلا تَأْكُلُونَ * مَا لَكُمْ لا تَنْطِقُونَ * فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ * فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ * قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ * وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ * قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ * فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَسْفَلِينَ} [سورة الصافات:٨٨-٩٨].

إنما قال إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- لقومه ذلك، ليقيم في البلد إذا ذهبوا إلى عيدهم، فإنه كان قد أزف خروجُهم إلى عيد لهم، فأحب أن يختلي بآلهتهم ليكسرها، فقال لهم كلاما هو حق في نفس الأمر، فَهموا منه أنه سقيم على مقتضى ما يعتقدونه.

بعضهم يقول: سقيم من هذه الحالة التي أنتم فيها من الإشراك والكفر بالله -عز وجل- وعبادة غيره، فذهب وهمهم إلى المرض، أي معتل، يعني اختل مزاج بدنه، هذا هو المرض.

{فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ} قال قتادة: والعرب تقول لمن تفكّر: نظر في النجوم، يعني قتادة: أنه نظر في السماء متفكرا فيما يلهيهم به، فقال: {إِنِّي سَقِيمٌ} أي: ضعيف.

قوله: {فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ * فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ} كثير من المفسرين كما نقله الواحدي يقولون: إن هؤلاء كانوا يتعاطون النظر في النجوم، يعتقدون في النجوم، ويستدلون بأحوالها على الأحوال الأرضية كما هو معروف في حال هؤلاء، فيقولون: إنه عاملهم بذلك مجاراة لما كانوا عليه ظاهراً ليتوصل إلى مطلوبه، ليتخلف من مطلوبهم يتخلف عن حضور عيدهم، وهذا العيد عيد مكاني من الأعياد الزمنية، والأعياد المكانية، فقد يكون الزمانُ حدثٌ له كما هو ظاهر، ويكون له مكان محدد، كعرفة مثلاً عيد زماني مكاني، أما عيد الفطر فإنه عيد زماني، عرفة عيد مكاني يجتمع الناس فيه في يوم محدد، فهؤلاء يخرجون إلى عيد لهم، هذا العيد يجتمعون فيه، الشاهد أنه أراد أن يتخلف عن هذا العيد وأن لا يحضر {فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ * فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ} لما نظر قال: {إِنِّي سَقِيمٌ} يعني في مستقبل كل إنسان سيجدّ عليه المرض {إِنِّي سَقِيمٌ} أي إنه سيمرض مستقبلاً وإنه لا يسلم أحد من مرض واعتلال وما أشبه ذلك، وبعضهم كالحسن يقول: لما دعوه إلى الخروج فكر ماذا يفعل، وهذا التفكر يعبر عنه بهذا {فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ} بمعنى أن العرب تقوله لمن

تفكر، {فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ} فيما يعمل، يقصدون أنه نظر وتأمل فيما ينجم له من الرأي، ما ينجم له من الرأي: يعني ما يخرج له، ويتوصل إليه من الرأي فعلم أن كل شيء يصيبه المرض ويسقم {فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ} فيكون من قبيل التعبير عن الأمر المستقبل ببالك، {إِنِّي سَقِيمٌ} يعني مستقبلاً أن ذلك سيصيبه كما قال الله -عز وجل-: {إِنَّكَ مَيِّتٌ} [سورة الزمر:٣٠] هذا باعتبار ما سيكون {وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ} فيكون هذا محملاً، وبعضهم يقول: إن الرجل إذا تفكر نظر في النجوم، فصار ذلك يعبر به عن التفكير، يعني لا يقيد هذا القول بقول: ينظر فيما نجم له، هذا الفرق مع الذي قبله، أن الذي يفكر ينظر في النجوم فقيل عن التفكير مثل هذا التعبير نظر في النجوم إذا كان الرجل يفكر في أمر يدبره ونحو ذلك، وهذا قال به بعض أصحاب المعاني كالمبرد وقال به غيره كالخليل بن أحمد، وبعضهم يقول: إنه كان مريضاً في الساعة التي دعوه فيها {فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ * فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ} فاعترض لهم بعذر واقع صحيح، كان تعتاده الحمى، وكان الوقت الذي طلبوا منه الخروج هو الوقت الذي تأتي فيه الحمى هكذا قال بعضهم: يعني سواء في اللحظة كان مريضاً جداً أو في التوقيت الذي دعوه يعني في اليوم الآخر مثلاً أن يخرج معهم هو عرف أنه يمرض في هذا الوقت، وهذا فيه تكلف لا دليل عليه، -والله تعالى أعلم-، وبعضهم يقول كالضحاك {فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ}: باعتبار أن كل إنسان سيأتيه مرض الموت {فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ} وهذه الأقوال هي محاولة لتفسير ذلك {فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ}، و يكون ذلك من قبيل التورية حتى إن بعضهم قال: إنه أشار لهم إلى مرض يعني يُعدِي بإذن الله، فعصب رأسه وأوهمهم أن به الطاعون {فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ} يعني فروا منه، وهذا بعيد، -والله تعالى أعلم-، ولا دليل عليه {فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ} ذهبوا إلى شأنهم وتركوه، وقوله: {فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ} يمكن أن يكون باعتبار المستقبل، ويمكن باعتبار الحال إما أن يكون سقيماً معنوياً بسبب ما يرى من عبادة غير الله -عز وجل- وإصرار هؤلاء على الشرك والكفر، ويمكن أن يكون في حينها كان معتلاً، ولكن في الحدث الذي يأتي ذكر النبي -صلى الله عليه وسلم- في الكذبات التي كذبها إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: {فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ} فالظاهر -والله تعالى أعلم- أن ذلك من باب التورية، وأنه حينما نظر في النجوم هو لا يعتقد في النجوم، ولكنه فعل ذلك من أجل أن -يعني كما يقال- يكتمل المشهد، يعني ليقبلوا ذلك ويعذروه فيعرضوا عنه وهم أهل نظر في النجوم، فنظر في النجوم وقال: {إِنِّي سَقِيمٌ} إما باعتبار الحال أو باعتبار المستقبل أنني سأمرض، يعني يقول لهم: سأمرض، باعتبار أن النظر في النجوم كانوا يستدلون به على أحوال الأرضية يعني {نَظْرَةً فِي النُّجُومِ} قال: إنه سيصيبني في هذا الوقت المرض مثلاً يحتمل هذا، فالذي يظهر -والله تعالى أعلم- أن هذا من قبيل التورية، كما يدل عليه الحديث، ولا يظهر أنه كان مريضاً حينها، -والله أعلم-، لكن كل إنسان سيمرض إذا قال الإنسان باعتبار أنه مستقبل فلا إشكال، تقول: أنا مسافر يعني باعتبار المستقبل، يعني الآن لو أن أحداً قال لك: اذهب معي، تقول: أنا مسافر وتقصد أنك مسافر إلى الله، أو تقصد أنك في المستقبل ستسافر، هذه التورية، هل هذا يكون من قبيل الكذب؟ الجواب: لا، لكن لا يتوسع الإنسان في مثل هذه الأمور كما هو معلوم بعد ذلك لا يعرف له حق من باطل كل كلامه تورية لكن إذا ضاق الأمر ففي المعاريض مندوحة عن الكذب.

فأما الحديث الذي رواه ابن جرير هاهنا عن أبي هريرة؛ أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: "لم

يكذب إبراهيم، -عليه الصلاة والسلام-، غير ثلاث كذبات: ثنتين في ذات الله، قوله: {إِنِّي سَقِيمٌ}، وقوله: {بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا} [سورة الأنبياء:٦٢]، وقوله في سارة: هي أختي" فهو حديث مخرج في الصحاح والسنن من طرق، ولكن ليس هذا من باب الكذب الحقيقي الذي يذم فاعله، حاشا وكلا وإنما أطلق الكذب على هذا تجوزا، وإنما هو من المعاريض في الكلام لمقصد شرعي ديني.

وقيل: أراد أي: مريض القلب من عبادتكم الأوثان من دون الله -عز وجل.

وقال الحسن البصري: خرج قوم إبراهيم إلى عيدهم، فأرادوه على الخروج، فاضطجع على ظهره وقال: {إِنِّي سَقِيمٌ}، وجعل ينظر في السماء فلما خرجوا أقبل إلى آلهتهم فكسرها، رواه ابن أبي حاتم.

ولهذا قال تعالى: {فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ} أي: إلى عيدهم، {فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ} أي: ذهب إليها بعد أن خرجوا في سرعة واختفاء.

سرعة واختفاء من قوله: فراغ، مع أن أكثر المفسرين في هذا الموضع لا يفسرونه بالذهاب بسرعة وخفاء، وإنما يقولون: مال إليه، راغ أي مال، هذا عامة المفسرين، لكن مضى الكلام على هذا المعنى في بعض المناسبات {فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاء بِعِجْلٍ سَمِينٍ} [سورة الذاريات:٢٦] راغ من الروغان وهو الذهاب بسرعة وخفاء

يعطيك من طرفِ اللسانِ حلاوةً *** ويروغُ منك كما يروغُ الثعلبُ

يروغ الثعلب: يميل يذهب بسرعة وخفاء.

ولهذا قال تعالى: {فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ} أي: إلى عيدهم، {فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ} أي: ذهب إليها بعد أن خرجوا في سرعة واختفاء، **{فَقَالَ أَلا تَأْكُلُونَ}، وذلك أنهم كانوا قد وضعوا بين أيديها طعاما قربانا لتُبرّك لهم فيه.**

فلما نظر إبراهيم -عليه والسلام- إلى ما بين أيديهم من الطعام قال: {أَلا تَأْكُلُونَ * مَا لَكُمْ لا تَنْطِقُونَ}؟!

الآن على قول ابن كثير هذا الطعام {فَقَالَ أَلا تَأْكُلُونَ} كانوا يضعون عندها طعاماً لا لتأكل وإنما للتبرك، يعني يضعون عندها طعامهم، طعاماً لهم ليتبركوا بهذه الآلهة، لينالوا بركتها لتبارك لهم هذا الطعام، وبعضهم يقول: كانوا يصنعونه لها لتأكل، وهل يعقل هذا؟ الجواب نعم كل شيء يتصور من هؤلاء الوثنيين، ولا يزال يوجد إلى اليوم في بعض النواحي كما في بلاد الهند من يضعون أطيب الطعام وأفضل الطعام في بلد يوجد فيها ملايين من الفقراء الذين لا يجدون ما يقيمون أصلابهم يضعونه لأصنامهم، ويعتقدون أن هذا الصنم إذا كان راضياً عنهم فإنه راضٍ عنهم من هذا الطعام، وهكذا في كل يوم يجددون ذلك، فيُتصور هذا من هؤلاء الوثنيين فإن العقل يصير على حال من المسخ فيصل الأمر إلى هذا الحد، وبعضهم يقول: هذا الطعام يوضع لسدنة الأصنام، فكان موضوعاً فقال إبراهيم -صلى الله عليه وسلم-: {أَلا تَأْكُلُونَ} وهو موضوع للسدنة، وبعضهم يقول: إن إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- لربما هو الذي قربه إليهم إلى هذه الأصنام أعطاهم مستهزءًا {فَقَالَ أَلا تَأْكُلُونَ} دفع إليهم طعاماً، {فَقَالَ أَلا تَأْكُلُونَ} يسخر من هذه الأصنام، وممكن أن يكون هناك طعام تركوه لأنفسهم يتبركون أو السدنة أو كانوا يضعونه لها، ليس عندنا دليل على شيء من هذا، لكن دل على وجود طعام قوله: {أَلا تَأْكُلُونَ}.

وقوله: {فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ}: قال الفراء: معناه مال عليهم ضربا باليمين.

وقال قتادة والجوهري: فأقبل عليهم ضربا باليمين.

وإنما ضربهم باليمين لأنها أشد وأنكى؛ ولهذا تركهم جذاذا إلا كبيرا لهم لعلهم إليه يرجعون، كما تقدم في سورة الأنبياء تفسير ذلك.

وبعضهم يقول: اليمين يعني القوة، والعرب تعبر عن القوة باليمين، وذلك يرجع إلى أن اليمين أقوى من الشمال فصار يعبر بها عن القوة {فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ} يعني بالقوة يُضربون، يضربهم ضرباً قوياً، وبعضهم يقول: {بِالْيَمِينِ} يعني بالعدل فإن العدل يقال له: يمين، بخلاف الظلم والكفر والشرك وما إلى ذلك فإنه يعزى إلى الشمال، واضح؟، وبعضهم يقول غير هذا، بعضهم يقول: إنه حلف {وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ} [سورة الأنبياء:٥٧] فهذه يمين {فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ} إلى حلفها، يعني وفّى بالحلف {ضَرْبًا بِالْيَمِينِ} حلف أن يكيد الأوثان فوفى بذلك {فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ}، فهنا يقول: {فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ} إنما ضربهم باليمين؛ لأنها أشد وإن كان على ظاهره ضربه بيمينه فهذا يقتضي أن يكون ضرباً قوياً، عبر باليمين؛ لأنها تدل على القوة.

قوله هاهنا: {فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ}: قال مجاهد وغير واحد: أي يسرعون.

يعني هذا الآن هم عبدة الأوثان قوم إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- وليست الأصنام أقبلت عليه بعدما ضربها؛ لأنها تكسرت وتهاوت، وإنما المقصود أن هؤلاء العبدة لهذه الأصنام أقبلوا إليه يزفون، قال: أي يسرعون، وبعضهم فسرها يقول: يمشون، وبعضهم يقول: يرعدون من الغضب والحنق، جاءوا في حال من الهيجان والتوتر، وبعضهم كمجاهد يقول: {فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ} يختالون إليه، وبعضهم يقول: بين العدْو والمشي، يسرعون في المشي وهذا هو المشهور أن قوله: {يَزِفُّونَ} بمعنى يسرعون، جاءوا إليه في حال من الإسراع بما حل بمعبوداتهم، يعني جاءوا يتدافعون ويتعادون إليه بسرعة لهول ما شاهدوه.

وهذه القصة هاهنا مختصرة، وفي سورة الأنبياء مبسوطة، فإنهم لما رجعوا ما عرفوا من أول وهلة مَن فعل ذلك حتى كشفوا واستعلموا، فعرفوا أن إبراهيم -عليه السلام-، هو الذي فعل ذلك.

يعني هم هناك كما قال الله -تبارك وتعالى- عن قيل بعضهم: {سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ} [سورة الأنبياء:٦٠]، لما قالوا {مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا}؟ [سورة الأنبياء:٥٩] فكان الجواب من بعضهم {سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ} يعني يذكر هذه الآلهة بسوء، مَن الذي سيجترئ عليها وهي آلهة في اعتقادهم؟، {قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ} يذكر هذه الآلهة؛ لأنها لا تنفع ولا تضر، وأنها ليست بآلهة حقيقية إذاً من الذي سيفعل هذا؟ والقرينة عندهم الأخرى غير ذكر إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- لهذه الآلهة بالذم والعيب أنه تخلف عن عيدهم {فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ} إذاً هو كان ينوي أمراً قد بيته لهذه الآلهة فجاءوا فشاهدوا ذلك فعرفوا أنه إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- ولهذا سألوه: {أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ}؟ [سورة الأنبياء:٦٢] هم يسألون ويستوضحون؛ ليتحققوا من هذا الظن الذي ظنوه والأمارات والقرائن التي عرفوها {أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ}؟.

فلما جاءوا ليعاتبوه أخذ في تأنيبهم وعيبهم، فقال: {أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ}؟! أي: أتعبدون من دون الله من الأصنام ما أنتم تنحتونها وتجعلونها بأيديكم؟!

النحت هو نجر الشيء ونقره حتى يصير على هيئة معينة، فينحت الخشب، وينحت الصخر وما إلى ذلك حتى يصير على الهيئة المطلوبة صورة صنم أو غير هذا.

{وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ} يحتمل أن تكون "ما" مصدرية، فيكون تقدير الكلام: والله خلقكم وعملكم. ويحتمل أن تكون بمعنى "الذي" تقديره: والله خلقكم والذي تعملونه، وكلا القولين متلازم، والأول أظهر.

قوله: {وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ} إذا كانت "ما" مصدرية فإنها تنسبك مع ما بعدها بمصدر فيكون الكلام هكذا والله خلقكم وعملكم، فهذه يحتج بها أهل السنة، أو من يحتج من أهل السنة، ومن وافقهم على أن أفعال العباد مخلوقة، وعلى هذا طوائف من المتكلمين، يقولون: إن أفعال العباد مخلوقة خلافاً للمعتزلة الذين يقولون: إن العبد مخلوق فعله، فالأشاعرة في ظاهر الأمر يقولون: إن أفعال العباد مخلوقة لله -عز وجل- ولكنها كسب لهم، مسألة كسب الأشعري التي تعرفون، وهو قول مشهور عنه ذلك الكسب لا غناء فيه، ولا يمكن أن يفسر بمعنى يظهر كل الظهور، فالشاهد أن الأشاعرة يردون على المعتزلة في قولهم: إن أفعال العباد هي خلق لهم، ولهذا تجد مثل صاحب الكشاف في مثل هذه الآية يشتط في تقرير أن "ما" هذه ليست مصدرية، وأنها موصولة {وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ} يعني الأصنام، ولو قال: والله خلقكم وما تعملون، يعني وعملكم فهذا يكون رداً على عقيدتهم، وهم -كما ذكر شيخ الإسلام في طريقة أهل البدع والضلال- تجاه النصوص تارة يفسرون القرآن بناء على ما يعتقدونه يحملونه يعني على معانٍ يعتقدونها فإن عجزوا عن هذا لجئوا إلى الأمر الآخر سلبوا القرآن ما دل عليه فصرفوه إلى معنى آخر لا يدل على خلاف اعتقادهم، فهنا السهيلي وغيره لهم ردود، والسهيلي محسوب على عقيدة الأشاعرة مع علمه وإمامته في العلم -رحم الله الجميع-، فالشاهد أن السهيلي يرد على الزمخشري، والزمخشري يقول: هذا لا يصح من جهة النحو والإعراب واللغة أن تقول "ما" مصدرية هنا، ويقول: حتى من جهة المعنى لا يصح، فالسهيلي يرد عليه رداً مفصلاً، وهو رد وجيه، وله حظ قوي من النظر، وابن القيم -رحمه الله- في بعض كتبه نقل شيئاً عن السهيلي تارة يناقشه بها، وتارة يقرر ما ذكره السهيلي، فالشاهد أن ابن القيم نقل كلام السهيلي في بعض المواضع ثم ناقشه أيضاً فابن القيم يرد على الزمخشري ويرد على السهيلي، وحاصل ما ذكره ابن القيم -رحمه الله- أن "ما" هذه ليست مصدرية، ويقول: إنها موصولة {وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ} والذي تعملون، ويقول: إن هذا أوفق وأقرب إلى المعنى، وإن الرد على المعتزلة لا ينبغي أن يحملنا على أن نحمل الآية على محمل ليس بقوي، أو ليس بذاك، ليس له وجه صحيح في التفسير، ولكن يمكن أن يرد على المعتزلة بأشياء أخرى، وإن هذه الآية لا تدل على عقيدة المعتزلة بحال من الأحوال، لكن يقول: هذا التفسير هذا المعنى أوضح وأوجه، وأقوى من أي وجه يُذكر، وجوهٌ متعددة، لكن من أبرزها، يقول لو أنه قال: {وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ} يعني وعملكم هم سيقولون: إن عبادتنا هذه للأصنام إذاً الله هو الذي خلقها، في مقام هم يعبدون الأصنام فينكر عليهم، ويقول لهم: {أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ * وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ} وعملَكم، يقولون: عملنا هذا هو عبادة الأصنام إن كان الله الذي خلقه كيف تحتج علينا إذاً، كأنه لقنهم الحجة، فالشاهد أن ابن القيم -رحمه الله- يرد علي السهيلي ويرد على المعتزلة أيضاً يقول: هذه الآية لا حجة فيها، ويوافقه ابن قتيبة، والسهيلي يرد على ابن قتيبة ويرى أن هذا من الأخطاء، وإن كان ابن قتيبة لا يوافق المعتزلة في عقيدتهم هذه لكن في تفسير الآية يقول: إن "ما" هذه

موصولة والله خلقكم والذي تعملون، لاحظ عبارة ابن كثير دقيقة جداً يقول: **وكلا القولين متلازم**، أي متلازمان، ثم إن ابن القيم -رحمه الله- يقول: نفس الآية هي رد أيضاً على المعتزلة على قولهم: إن "ما" موصولة، يقول: حتى على هذا القول هي رد على المعتزلة فما يفرحون بهذا التفسير من أي وجه، يقول: إذا كان الآن {وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ} يعني والذي تعملونه –صنع الأصنام- الله خلقها فهي مخلوقة من حيث المادة التي وجدت منها حجر، طين، خشب..... إلى آخره وهي مخلوقة من جهة التصوير والصورة والهيئة التي صارت عليها، وهذا التصوير والتشكيل نتيجة النحت الذي عمله المخلوق، فإذا كان الله -عز وجل- قد خلق هذه الأصنام التي يعبدونها فهي خلق له في مادتها وخلق له في هيئتها وصورتها أصلاً، يعني أن الله هو الخالق، بمعنى أنها خلق لله يصح أن يطلق عليها هكذا أنها خلق لله، مع أنهم هم الذين صوروها وشكلوها فذلك يرجع إلى الله -تبارك وتعالى- خالق أفعال العباد، فالأيدي التي صنعتها مخلوقة، إذاً هي أثر للمخلوق، لعمل مخلوق خلقه الله -عز وجل-: {وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ} صارت أفعالهم التي هي واسطة صار بها هذا التصوير والتشكيل لهذه المعبودات، صارت أفعالهم بهذا الاعتبار مخلوقة، هذا يذكره ابن القيم في الرد عليهم، هنا لاحظ ابن كثير يقول: **وكلا القولين متلازم والأول أظهر**، يعني كيف يكون كلا القولين متلازماً؟ الله خلقكم والذي تعملونه، خلقكم وعملكم، فعملهم هذا نتج عنه هذه المنحوتات والمعبودات والأشكال والصور التي صوروها، لا من الأصنام فإذا كانت هذه مخلوقة فإن الأيدي التي صنعتها مخلوقة والأفعال التي وجدت بها والجهود مخلوقة فصار بين القولين بهذا الاعتبار ملازمة، ويمكن أن يراجع كلام ابن القيم -رحمه الله- مفصلاً في هذا، يراجع مثلاً بدائع التفسير.

والأول أظهر؛ لما رواه البخاري في كتاب "أفعال العباد"، عن حذيفة مرفوعا قال: ((إن الله يصنع كل صانع وصنعته))[٤]**، وقرأ بعضهم: {وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ}.**

الصنعة تقال: للمصنوع، صنعة، وابن القيم -رحمه الله- يحتج على قوله، على ما ذكر من أنها موصولة، وهي كانت بأفعال المخلوقين نتيجة لأعمالهم ونجْرهم ونقرهم ونحتهم وما إلى ذلك، ويذكر ابن القيم -رحمه الله- على هذا آيات من القرآن مثلاً قوله تعالى عن سفينة نوح -صلى الله عليه وسلم-: {وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ * وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ} [سورة يس:٤١-٤٢] مع أن من الذي صنع الفلك التي يركبون فيها؟ -السفن-، وابن القيم استبعد قول من قال: إن المقصود الإبل كما سبق أنها سفن البر إلى آخره وإنما {مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ} من المراكب سواء كانت البحرية على قول من حدده بذلك أو المراكب الأخرى التي يركبونها منها الطائرات اليوم والسيارات ونحو هذا، فعلى كل حال هذه السفن وسائر المراكب وأنواعها من الذي صنعها؟ الناس أليس كذلك؟ والله -عز وجل- قال: {وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ} مع أنها مخلوقة ومصنوعة بأيدي الصناع الناس، وذكر آيات غير هذه فأضاف ذلك إلى نفسه.

فعند ذلك لما قامت عليهم الحجة عدلوا إلى أخذه باليد والقهر، فقالوا: {ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ} وكان من أمرهم ما تقدم بيانه في سورة الأنبياء، ونجاه الله من النار وأظهره عليهم، وأعلى حجته

---

٤ - رواه البخاري في خلق أفعال العباد (ص٧٣)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (١٦٣٧).

ونصرها؛ ولهذا قال تعالى: {فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَسْفَلِينَ}.

الجحيم: كل نار بعضها فوق بعض يقال لها: جحيم، والجمر المتراكم بعضه فوق بعض يقال له: جحيم، فلذا قال أصحاب اللغة والمفسرون كابن جرير وغيره: نار متراكمة.

وهنا عبرة وآية عظيمة يعني هؤلاء الناس لما ألقوه في هذه النار العظيمة، وإذا نظرتم ما يذكر فيها -هي من قبيل الروايات الإسرائيلية- لكن لا شك أنها نار عظيمة: {قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ} والتعبير بالجحيم يدل على هذا، مع ذلك لما وجدوه من غير بأس وما مسته النار، هل تحولوا إلى الإيمان؟ آمن هؤلاء وبقي إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- فيهم؟ أبداً ما تغير في الأمر شيء قال: {إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي} [سورة العنكبوت:٢٦] خرج وتركهم، فإذا طُمس على القلوب فمهما رأوا من الآيات فإن ذلك لا يؤثر فيهم -نسأل الله العافية-، فأي آية أعظم من هذا شاهدوها عرفوها عرفوا حقيقة ما جاء به -عليه الصلاة والسلام-؟ ومع ذلك بقوا على لسانهم ورجزهم وضلالهم، والله المستعان.

{وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ * رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ * فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ * فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ * فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ * وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ * وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ * سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ * كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ * وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ * وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ} [سورة الصافات:٩٩-١١٣].

يقول تعالى مخبرا عن خليله إبراهيم -عليه السلام-: إنه بعدما نصره الله على قومه وأيس من إيمانهم بعدما شاهدوا من الآيات العظيمة، هاجر من بين أظهرهم، وقال: {إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ} يعني: أولادا مطيعين عوضًا من قومه وعشيرته الذين فارقهم.

هكذا الإنسان إذا دعا ربه وسأل الذرية يقيد ذلك بالصلاح قال: {رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ}، {رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً} [سورة آل عمران:٣٨]، فذلك يكون نعمة على الإنسان لكن قد يأتي أولاد بخلاف ذلك فيكونون نقمة.

قال الله تعالى: {فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ} وهذا الغلام هو إسماعيل -عليه السلام-، فإنه أولُ ولد بشر به إبراهيم -عليه السلام-، وهو أكبر من إسحاق باتفاق المسلمين وأهل الكتاب، بل في نص كتابهم أن إسماعيل وُلِدَ ولإبراهيم -عليه السلام- ست وثمانون سنة، ووُلدَ إسحاق وعمرُ إبراهيم تسع وتسعون سنة.

لما هاجر إلى بلاد الشام قال: {رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ} فالله -تبارك وتعالى- يقول: {فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ} الآن ليس عنده أولاد فسأل الولد فعوضه الله -عز وجل- بالذرية الطيبة، الذين يُنسونه قومه وعشيرته وأهله ووطنه الذين فارقهم لله وفي الله، فهنا إذا كان إسماعيل -صلى الله عليه وسلم- أكبر فإن المبشَّر به إسماعيل -عليه الصلاة والسلام- بهذا الاعتبار، هذا دليل أول أنه إسماعيل -صلى الله عليه وسلم-، والدليل الثاني من كتبهم قال: وعندهم أن الله -تبارك وتعالى- أمر إبراهيم أن يذبح ابنه ووحيده هذا في نص كتابهم،

وفي نسخة أخرى بِكْره، والبكر في كتبهم هو إسماعيل هم يوافقون أنه هو الأكبر، أكبر من إسحاق.

وعندهم أن الله تعالى أمر إبراهيم أن يذبح ابنه وحيده، وفي نسخة: بِكْره، فأقحموا هاهنا كذبا وبهتانا إسحاق.

وهذا من تناقضهم وتحريفهم حينما يوافقون على أن إسماعيل -صلى الله عليه وسلم- هو الأكبر ثم يقولون: أن يذبح بِكره إسحاق فهذا كذب يلوح كيف يكون البكر إسحاق؟، فهذا مما يحتج عليهم به من باب المناظرة للنصارى أنهم حرفوا كتبهم مما يحتج عليهم به في هذا الموطن قال كيف تتناقضون؟ أنتم تقولون: إنه هو الوحيد إسماعيل، إنه هو الأكبر فكيف يكون البكر هو إسحاق؟.

ولا يجوز هذا لأنه مخالف لنص كتابهم، وإنما أقحموا إسحاق لأنه أبوهم، وإسماعيل أبو العرب، فحسدوهم، فزادوا ذلك وحَرّفوا وحيدك، بمعنى الذي ليس عندك غيره، فإن إسماعيل كان ذهب به وبأمه إلى مكة وهذا تأويل وتحريف باطل، فإنه لا يقال: "وحيد" إلا لمن ليس له غيره.

هذا دليل آخر من النظر أول ولد له معزّة ما ليس لمن بعده من الأولاد يعني إذا أُمر بذبحه فهذا يكون أشد في البلاء.

وأيضا فإن أول ولد له معزّة ما ليس لمن بعده من الأولاد، فالأمر بذبحه أبلغ في الابتلاء والاختبار.

هذا الوجه الثالث الذي ذكره ابن كثير للاحتجاج على أن إسماعيل -صلى الله عليه وسلم- هو الذبيح، والمسألة فيها خلاف كثير بين أهل العلم، فيها قولان مشهوران بكل واحد منهما قال جماعة من الصحابة فمن بعدهم، وليس في المسألة دليل صريح يقطع الخلاف ويرفعه، ولعل أوضح ما فيها ما صح عن النبي -صلى الله عليه وسلم- فيما يتصل بقرني الكبش في جوف الكعبة، فذلك مما توارثوه وعُرف وأقر النبي -صلى الله عليه وسلم- بذلك، فهذا أوضح دليل أن الذبيح كان إسماعيل -صلى الله عليه وسلم-، وأما الدلائل من القرآن فإنك إذا نظرت إلى استدلال كل طائفة ظننت أن هذا الاستدلال الأوجه والأقوى والأصح، فإذا نظرت إلى استدلال الطائفة الثانية وجدت أنهم يحتجون بأدلة أو بطرائق لا تقل عن الأولين من حيث الوجاهة والقوة، لكن الآن لو سألناكم لأول وهلة الآن لو جاء واحد منكم وقال: الذبيح هو إسحاق ما رد الفعل عندكم؟ ماذا تقولون عن هذا القول؟ ماذا تقولون؟ ضعيف فقط، أو خطأ فقط، أو هاوٍ، أو في غاية الضعف والسقوط في نظركم ما تقولون؟، الآن أنا في هذا الدرس لو قلت لكم: إن الذبيح هو إسحاق لسارت به الركبان أو لا؟ أرأيتم أن هذا من الشناعة أليس كذلك؟، ولولا خشية الوقت لقرأنا من تفسير ابن جرير؛ لأنه يقول: الذبيح إسحاق والحجج التي يوردها ابن جرير بحيث لو قرأت عليكم بمجردها أظن أنكم إما أن تقولوا: إن الذبيح إسحاق أو تتوقفوا في المسألة وتتحيروا، يعني لا نقول: إن الذبيح إسحاق، والذبيح هو إسماعيل -عليه السلام-، لكن أقصد من المسائل ما يظن الإنسان أحياناً لأول وهلة أن هذا القول ساقط ولا وجه له، فلو نظر في حجج أصحابه لغير رأيه فلا يستعجل الإنسان في رأي أقوال أهل العلم وردها قبل أن ينظر في حججهم وأدلتهم، وأكثر أهل العلم كما يقول القرطبي: إن الذبيح هو إسحاق وأنا لم أتتبع هذا بدقة لكن هذا كلام القرطبي، يقول: الأكثر يقولون: هو إسحاق، مع أن الحاكم النيسابوري يقول في المستدرك: إن الذين أدركهم من الشيوخ شيوخ الحديث في البلدان يقولون: إن الذبيح هو إسماعيل -صلى الله عليه وسلم- لا يختلفون في

ذلك، أهل الحديث، ثم يذكر عن قومٍ وُجدوا أنهم يقولون، لا يقصد أنهم غير موجودين من قبل، هذا قول معروف لبعض الصحابة لكن وقف عمن يقول في زمانه بأن الذبيح هو إسحاق، هذا كلام الحاكم النيسابوري، والقرطبي يعزو ذلك إلى أكثر أهل العلم: الذبيح هو إسحاق، وهذا يروى عن العباس عم النبي -صلى الله عليه وسلم-، ويروى عن ابن عباس، وصح عن عبد الله بن مسعود -رضي الله تعالى عنه-، وجابر يروى عنه ذلك أيضاً، وعلي بن أبي طالب وابن عمر، وعمر بن الخطاب يروى عنه هذا إن صح، فهؤلاء سبعة من الصحابة -رضي الله تعالى عنهم- يروى عنهم القول: إن الذبيح هو إسحاق، وأما الذين قالوا هذا من التابعين فمن بعدهم واختلاف الطبقات فهؤلاء كثير فهو مروي عن علقمة وأصحاب ابن مسعود، والشعبي ومجاهد وسعيد بن جبير، وكعب الأحبار، وقتادة ومسروق، وعكرمة، والقاسم بن أبي برزة، وعطاء ومقاتل، وعبد الرحمن بن سابق، والسدي وعبد الله بن هذيل، ومالك بن أنس هؤلاء كلهم يقولون: إسحاق، واليهود والنصارى يقولون: الذبيح هو إسحاق، ومن أهل العلم من المفسرين وأصحاب المعاني كابن جرير يقول: الذبيح إسحاق، والنحاس صاحب معاني القرآن يقول ذلك، وأما الذين قالوا: إنه إسماعيل -صلى الله عليه وسلم- فهذا مروي عن أبي هريرة والطفيل عامر بن أبي واثلة، وهو أيضاً مروي عن ابن عمر، وأيضاً عن ابن عباس -رضي الله عن الجميع-، وممن جاء بعد الصحابة: الذين روي عنهم من الصحابة سبعة في السابق قالوا: إنه إسحاق، وهنا عن ابن عمر روايتان، وعن ابن عباس روايتان فبقي عندنا أبو هريرة وأبو الطفيل، والتابعون قال بهذا سعيد بن المسيب، وهو مروي عن الشعبي أيضاً، ويوسف بن مهران، ومجاهد، والربيع بن أنس، ومحمد بن كعب القرظي، والكلبي، وعلقمة فهؤلاء أقل من الأولين، لهذا قال القرطبي: إنه قول الأكثرين يعني أن إسحاق هو الذبيح، والأصمعي سأل أبا عمر بن العلاء عن الذبيح من هو؟ فقال له: يا أصمعي! أين عزب عنك عقلك ومتى كان إسحاق بمكة؟ إنما كان إسماعيل بمكة، وقد يقول قائل من أصحاب القول الآخر: من قال لكم إن الذبح كان في مكة، إنه أُمر بذبحه في بلاد الشام، يعني هذا قول، فهم يقولون: لا نسلم أصلاً أنه بمكة، فيستطيعون الجواب عن هذا الذي ذكره أبو عمر بن العلاء -رحمه الله-، فهذا فيه عبرة أن الإنسان لا يستعجل برد بعض أقوال أهل العلم حتى ينظر في أدلتهم وما شابه ذلك، وهي مسألة دقيقة؛ لأن من الناس من يستعمل مثل هذا في ضرب الثوابت عند الناس، لكن فرق بين هذا وهذا، نحن نتكلم عن أقوال معتبرة عند أهل العلم، ومشهورة ولربما قال فيها أكثر أهل العلم، لكن أولائك يستعملون هذا في هز الثوابت عند الناس يقولون: انظر في كلام الآخرين ولا تأخذ الكلام لتسمعه على أنه مسلَّم، وهذه مشكلة كبيرة، والعوام لا يطالبون بهذا، إنما مذهبهم مذهب من أفتاهم من علمائهم علماء بلدهم، أنا مع البلد الذي يعني يستفتي فيه هؤلاء، وإذا نظرت في حجج هؤلاء، وحجج هؤلاء ابن كثير -رحمه الله- أورد ثلاثة مثلاً وليس المقصود الاستقصاء إنما مزيد من الإيضاح بعض الشيء، فمثلاً الذين قالوا: إنه إسحاق قالوا: إن الله -عز وجل- قد أخبرهم عن إبراهيم حينما فارق قومه فهاجر إلى الشام مع امرأته سارة وابن أخيه لوط فقال: {وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ}، قالوا: دعا فقال: {رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ}، فقال تعالى: {فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ} [سورة مريم:٤٩] فلما اعتزلهم، {وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي} [سورة العنكبوت:٢٦] وقال: {رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ * فَبَشَّرْنَاهُ

بِغُلَامٍ حَلِيمٍ} وهذا الغلام الحليم قالوا: تفسره الآية الأخرى: {فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ} قالوا: إسحاق هذا هو المقصود المبشَّر به لما اعتزل قومه وذهب إلى بلاد الشام، وهذا استدلال وجيه، قالوا: إن الله -تبارك وتعالى- قال: {وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ} فذكر أنه في الغلام الحليم الذي بشر به إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- وإنما بشر بإسحاق، وابن جرير يقول: كل المواضع التي فيها تبشير في القرآن لإبراهيم -صلى الله عليه وسلم- بالولد فالمقصود به إسحاق، والملائكة لما جاءوا لإهلاك لوط ومروا على إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- في القصة المعروفة بشروه أيضاً بغلام فجاءت امرأته في حال من الدهشة {فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ} [سورة الذاريات:٢٩]، وهذه المرأة بالاتفاق هي سارة وليست هاجر، فقالوا: هذا الذي بُشر به، فابن جرير يقول: في كل المواضع الذي بشر به هو إسحاق -عليه الصلاة والسلام-، يقولون: بشر بإسحاق؛ لأنه قال: {وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَقَ نَبِيًّا}، وقال هنا: {فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ} وذلك قبل أن يعرف هاجر، قبل أن يذهب إلى بلاد مصر، وقبل أن يولد إسماعيل -عليه الصلاة والسلام- لكن هذا يقتضي أن إسحاق أكبر من إسماعيل مع أن أهل الكتاب يوافقون -كما ذكر ابن كثير- على إن إسماعيل هو الأكبر، وقضية الغيرة التي حصلت سببها أن سارة لم يكن يولد لها فلما أهديت إليه هاجر فولد لها غلام تحركت دواعي الغيرة عند سارة فذهب بها إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- وكما في الحديث إن أول من اتخذ النطاق هي هاجر، كانت تمحو أثرها عن سارة، كانت تتبع آثارها فكان لها نطاق، عملت نطاقاً لتمحو الأثر إذا مشت حتى لا تتعرف تلك على الأماكن التي ذهبت إليها وأين جاءت وأين ذهبت، وهل لقيت إبراهيم -صلى الله عليه وسلم-؟، فهذا يدل على أنها غارت، وذهب بهاجر إلى أرض الحجاز إلى مكان الحرم مع ولدها، وهذا ظاهر، ثم بعد ذلك وُجد له إسحاق -عليه السلام- لكن مثل هذا النوع من الاستدلال له وجاهة لكن إذا نظرت إلى غيره من الأدلة كأنه لا يتفق معها وهي أمور مسلمة واضحة، فهذا الاحتجاج له وجه وله قوة، ويقابل أموراً مسلّمة ينقضها أو يصادرها، فالذين قالوا: إنه إسماعيل -عليه السلام- قالوا: أولاً الله وصفه بالصبر دون إسحاق كما في قوله: {وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ} [سورة الأنبياء:٨٥]، وقد قال لأبيه: {سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ} قالوا: هذا الصبر على الذبح، ووصفه بصدق الوعد هو وعد أباه {افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ} فالله قال عنه: {إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ} [سورة مريم:٥٤] هذه أوصاف إسماعيل -عليه الصلاة والسلام-، فوفى بما وعد، ولأن الله قال: {وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَقَ نَبِيًّا} فكيف يأمره بذبحه وقد وعده أن يكون نبياً، {وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَقَ نَبِيًّا} هو يكون نبياً بعدما يكبر، فكيف يأمره بذبحه؟ إذاً لن يتحقق هذا الذبح، سيكون نبياً في المستقبل! والاستدلال واضح، كيف يبشره به -بإسحاق بولد- وأنه سيكون نبياً ثم يأمره بذبحه؟ هذا الذبح لن يتحقق، لابد أن تتحقق هذه البشارة أنه سيكون نبياً، وهكذا أيضاً قال: {فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ وَمِن وَرَاء إِسْحَقَ يَعْقُوبَ} [سورة هود:٧١]، فهذا الولد سيكون له نسل فهل يكون هو المأمور بذبحه؟ كيف يؤمر بذبحه ويعرف أنه سيولد له ولد آخر من هذا الولد؟ سيكون له ذرية {وَمِن وَرَاء إِسْحَقَ يَعْقُوبَ} فلا معنى للأمر بذبحه، وهكذا ما ورد من القرْن، قرنا الكبش موجودان في الكعبة، وذلك صح عن النبي -صلى الله عليه وسلم- ولو كان إسحاق فإسحاق ما جاء إلى مكة! وإنما يكون ذلك في الشام، فهذه الأشياء هي محل احتمال، وليس هناك

دليل قاطع، فإذا نظرت إلى أدلة هؤلاء، وأدلة هؤلاء وجدت أن ذلك له وجاهة، لكن الأرجح أن الذبيح هو إسماعيل -صلى الله عليه وسلم-، وحديث: ((ما بعث نبي إلا بعد الأربعين عاما))[٥]، لا نبي إلا بعد الأربعين إلا عيسى -صلى الله عليه وسلم-، فقال بعضهم: فكان قبل الأربعين، لكن لا أعلم أحداً يقول: إن أحداً من الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- كان نبياً في صغره أبداً، لا عيسى -صلى الله عليه وسلم-، ولا إسحاق، ولا يوسف -عليه الصلاة والسلام-، وموسى -صلى الله عليه وسلم- حينما ذهب إلى مدين كان ذلك قبل النبوة، وإنما نُبئ لما رجع في الطريق عند الطور، ويوسف -صلى الله عليه وسلم- حينما قال الله -تبارك وتعالى- له: {لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ} [سورة يوسف:١٥]، جاء ذلك وحياً من الله -تبارك وتعالى- وتطميناً أنه سيأتي اليوم الذي يخبر إخوته بفعلتهم وهم لا يشعرون أنه يوسف، وتحقق هذا لما قالوا له: {أَإِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ} [سورة يوسف:٨٩-٩٠] فقال: {أَنَاْ يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَيْنَا ...}، فالشاهد أنه أشعرهم بهذا، وهو خاطبهم بهذا وهم لا يشعرون، كان هذا قبل النبوة حينما قال الله له: {لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا} وهذا يُحتج به على أن الوحي قد يأتي لأحد من الناس ولا يكون نبياً كما أوحى الله إلى أم موسى وإلى الحواريين، وقد يأتي الوحي لبعض الأنبياء قبل النبوة كما في يوسف -صلى الله عليه وسلم.

تم بحمد الله وفضله.

---

٥ - ذكره السخاوي في المقاصد الحسنة، وقال: قال ابن الجوزي: إنه موضوع، المقاصد الحسنة (٥٨٧)، برقم (٩٨٥).